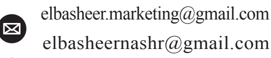

أعلامٌ في الظلّ

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

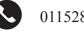
اسم الكتاب: أعلامٌ في الظلّ
التأليف: أ. د. حلمي محمد القاعود
موضوع الكتاب: أدب
المراجعة اللغوية: عبدالقادر أمين
عدد الصفحات: 184 صفحة
عدد الملازم: 11.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/25115
الترقيم الدولي: 978-977-278-778-4







elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714



أ. د. حلمي محمد القاعود

أعلامٌ في الظلّ

رجالٌ نبلاء

دار البشير للثقافة والعلوم

المحتويات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

استهلال

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتّابعين بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد:

فهذه الصّفحات تأتي في سياق التّعريف بالشخصيات التي بذلت جهودًا طيّبة ونبيلة لخدمة الأمّة والإسلام، من خلال ميادين عديدة تشمل الكلمة والسلاح والمقاومة والسياسة..

أشعر أنّ هؤلاء الرجال لم يأخذوا حقّهم المعنوي من الاهتمام والتكريم الوطني والقومي؛ بل إنّ بعضهم عوقبَ على إخلاصه ونبله وجهاده، ومن هنا جاء اهتمامي بهم ليكون تعبيرًا عن تقدير متواضع، أقدّمه للأجيال الجديدة لتتعرف على ما بذله رجالٌ ضحّوا في سبيل العلم والكلمة والوطن، فضلًا عن الدين وتشريعاته وقيمه، احتسابًا لوجه الله تعالى، ودون انتظارٍ لمثوبة حكومة أو هيئة أو مجتمع.

عرّفت بهؤلاء الرّجال غالبًا بعد رحيلهم، وكانت مناسبة الموت حافزًا على الكتابة عنهم، وتناولهم، والتّعريف بهم.

وهناك مَن بقي حيًّا- أطال الله عمره- حتى كتابة هذه السّطور، فجاءت الأحداث لتحرّك قلمي للكتابة والتعريف.

في كلّ الأحوال، وفي غمرة الالتزامات العديدة والصّحة الواهنة؛ أتمنى أن أعرّف بمَن بذلوا جهودًا وجهادًا من أجل الوطن والأمّة والدّين، في ظلّ مناخ رديء لا يتكلّم إلّا عن شخصيات مسطّحة تتحرّك في مجالات هامشية لا تقدّم شيئًا ذا بال، ويمنحها الإعلام الموجّه فرصةَ الظّهور والإلحاح على عين المشاهد وأذنه ووجدانه، دون أن يعرف غيرها من أصحاب العطاء الحقيقي والمؤثر.

اسأل الله أنْ ينفع بما كتبت، وهو سبحانه وليّ التوفيق.

المحرم ١٤٤١هـ

نوفمبر ٢٠١٩م

حلمي محمد القاعود



مصطفي الشكعة

علمٌ شامخٌ

-١-

يمثّل مصطفي الشّكْعة (١٩١٧ - ٢٠١١م)، واحدًا من الشّوامخ الذين خدموا الحضارة الإسلامية المعاصرة، أو جيل الموسوعيّين الذين خدموا العلم والمعرفة خدمةً جليلة في شتّى فروعها الإنسانية، فقد درس العلوم الإسلامية والعربية، وأنتج عشراتِ الكتب والمراجع التي يعودُ إليها الباحثون طلبًا للتّوثيق والرّأي السديد، وقد ظلّ طيلة عمره الذي استمرّ أربعًا وتسعين عامًا يعمل حتّى آخر لحظة في حياته لصالح الإسلام والمسلمين واللغة العربية وآدابها، ولم يتوانَ عن المشاركة في القضايا العامّة التي تهمّ الأمّة وتشغلها، فيوجّه ويوضّح ويشرح ويفسّر، ويرفض ويحتج، كلّ ذلك في إطار خلقي كريمٍ شهد به كلّ مَن عرفوه، واقتربوا منه.

ولد مصطفى محمد الشّكْعة في قرية محلة مرحوم، مركز طنطا، محافظة الغربية؛ لأسرةٍ موصولة النّسب بأسرة الشّكْعة في فلسطين المحتلّة، التي من بين أفرادها السّياسي الفلسطيني بسّام الشّكعة. ومحلّة مرحوم هي مولدُ أو موطن جلال الدين المحلّى شريك جلال الدين السيوطي في تفسيره الشّهير للقرآن الكريم المعروف بتفسير الجلالين. وكان والداه من فُضلاء القرية ؛

فكان أبوه من علماء المسلمين، كما كانت أمّه من بيتٍ عُرف بالعلم وحبّ المعرفة، وكان خاله الشّيخ أحمد صلاح نائبًا للمحْكمة الشّرعية العليا، وهو والدُ السّفير الشهيد كمال الدين صلاح، الذي اغتيل في الصّومال.

بدأ حياتَه العلميّة في "كُتَّاب" القرية، وقضى نحو عامين من طفولته الباكرة في هذا الكتّاب، حفظ فيهما قدرًا من سور القرآن الكريم، كما تعلّم الخطّ والإملاء ومبادئ الحساب، ثمّ ألحقه والدُه بمدرسة طنطا الأميرية، كما كانت تسمَّى آنذاك، ومنها حصل على الشّهادة الابتدائية، ثمّ حصل على الشّهادة الثانوية، وعندما توفّي والده انتقل للعيش مع أخيه الأكبر الذي كان يعمل موظّفًا في القاهرة. وهناك التحق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأوّل (القاهرة حاليًا)، وتخرّج منها، وفيها درس على أيدي الأساتذة الكبار من أمثال الدكتور عبد الوهاب عزام الذي يعدّه شيخَه، والدكتور طه حسين، والدّكتور أحمد أمين، والأستاذ أمين الخولي، والأستاذ مصطفى السقا، والدّكتور شوقي ضيف، والأستاذ عبد الحميد العبادي وآخرين..

واشتغل في التّعليم الثانوي نحو ٣ سنوات، ثمّ انتقل للعمل في مؤسّسة اليونسكو بسرس الليّان- وهي من قرى محافظة المنوفية- وظلّ بها نحو٣ سنوات، وعمل فيها مع المستشرق الفرنسي جاك بيرك. وكان بيرك قد أنجزَ ترجمته لمعاني القرآن الكريم إلى اللّغة الفرنسية، فأهداه نسخةً منها،

وهي النّسخة التي استعارها صديقنا الدّكتور إبراهيم عوض، وألّف على أثرها كتابه "ترجمة جاك بيرك بين المادحين والقادحين". وفي أثناء عمله بالتّدريس واليونسكو؛ حصل على درجتي الماجستير والدّكتوراه. وفي ذلك الوقت، أعلنت جامعة عين شمس عن وظيفة "مدرّس أدب"، وكانت هذه الوظيفة من نصيبه، وصار مدرسًا بكلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٥٦م، وتدرّج في الترقّي حتّى وصل إلى درجة الأستاذية، ثمّ رئيسًا لقسم اللغة العربية، ثمّ عيّن عميدًا للكلية.. وانتدب للعمل مستشارًا ثقافيًّا بواشنطن (١٩٦٠ - ١٩٦٥م)، وأعيرَ بعدها للتّدريس بجامعة بيروت العربية، ثمّ بجامعة أمّ درمان، كما شغل منصبَ عميد كلية الآداب بجامعة الإمارات. وبعد بلوغه سنّ المعاش أصبح أستاذًا متفرّغًا حتّى لقي ربّه في الحادي والعشرين من أبريل ٢٠١١م، وكان قد انتُخب عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف؛ وهو أعلى هيئة بالأزهر، كما كان رئيسًا للجنةِ التّعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية التّابع لوزارة الأوقاف.

-٢-

ترك مصطفى الشّكْعة عددًا كبيرًا من الكتب، تجاوز أربعين كتابًا في تاريخ الأدب والنّقد والدّراسات الإسلامية والرّحلات، ويعدّ بعضها مراجعَ أساسية في بابه، وقد صاغَها بأسلوبٍ علميّ دقيق سلس.. ومن أشهرها كتاب "إسلامٌ بلا مذاهب"، و"معالم الحضارة"، و"الأدب الأندلسي"،

و"الحضارة الإسلامية جوهرةٌ وإضاءة"، و"الأدب في موكب الحضارة الإسلامية"، و"فنون الشّعر في مجتمع الحمدانيّين"، و"بديع الزّمان الهمذاني رائدُ القصّة العربية والمقالة الصحفية"، و"أبو الطيب المتنبِّي في مصر والعراق"، و"معالم الحضارة الإسلامية"، و"الإمام أبوحنيفة"، و"الإمام مالك"، و"الإمام الشافعي"، و"الإمام أحمد بن حنبل"، و"مقالات في الدراسات الإسلاميّة (بالإنجليزية)، و"التربية والتعليم في العالم العربي" (بالإنجليزية)، وكتاب "البيان المحمّدي"، وهو مرجعٌ مهمّ في دراسة الخصائص البيانية للأحاديث النبوية، وكتاب "المغرب والأندلس: آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية"، الذي عالجَ فيه برؤية متفتّحة أثرَ الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس والثقافة الغربية، وكتاب "الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته"، الذي فنّد فيه المزاعمَ الباطلة التي روّجها بعضٌ من المؤلّفين من العرب والأوروبيّين عن ابن خلدون، وكتاب "الأدب في موكب الحضارة الإسلامية"، الذي هو تأصيلٌ علمي لدور الأدب في بناء الحضارة، وكتاب "المطالعات الإسلامية في العقيدة والفكر" وهو من الكتب التي تقدّم للأجيال الجديدة جوانب مشرقة من الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، وكتاب "مغامرات مصريّ في مجاهل اليمن".

ويعدّ كتابه "الأدب الأندلسي موضوعاتُه وفنونُه"، الذي طبع ثماني طبعات حتّى عام ١٩٩٥ من أهمّ الكتب وأوائلها في مجال دراسة الأدب الأندلسي،

ويرجع إليه كثير من الباحثين في تناولهم للأدب الأندلسي وشخصيّاته وشعره ونثره، ويكشف الشّكْعة سرّ اهتمامه بالأدب الأندلسي؛ فيشير إلى أنّ الأندلس تشكّل واحدة النكبات الكبرى في تاريخنا الإسلامي، كما يشير إلى تميّز الحضارة الرفيعة التي أقامها العرب هناك.

أمّا كتابه "إسلام بلا مذاهب"، فهو أشهرُ كتبه على الإطلاق، وطبعَ أكثر من عشرين طبعة، وفيه ينطلق من قـوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمـّة وسطًا}، ثمّ يعرض العقيدة الإسلامية عرضًا صحيحًا، بعيدًا عن الشّوائب والتصوّرات غير الدقيقة التي علقت بها، ويطرح على صفحات الكتاب قضايا التكافل الاجتماعي والشّورى والمساواة ومكانة المرأة في الإسلام، في سياق موضوعيّ ينير الطريق أمام المسلم المعاصر، ويحفّز على الوحدةِ ولمّ الشّمل الإسلامي بعيدًا عن الخلافات المذهبية التي استغلها الاستعمار والاستبدادُ لإشعال الفرقة والتّناحر بين أبناء الأمة الإسلامية.

-٣-

لا ريب أنّ انضمامه إلى الإخوان المسلمين في مُقتبل شبابه كان علامةً فارقة في حياته، وكان لقاؤه بالإمام الشّهيد نقطةَ تحوّل في توجّهاته، وقد تعرف على الأستاذ البنّا عندما كان طالبًا، وكان من أصغر الأعضاء سنًّا، كما كان مع صديقه الرّاحل سعيد رمضان من أقرب الشّبان إلى قلب البنا.

ويرى الشّكْعة أنّ البنا كان رجلًا سمحًا، دَمِث الأخلاق، يأسرُ محدّثه من أوّل لقاء، وكان مخلصًا في دعوته، كما كان خطيبًا مفوَّهًا، ومحاضرًا من طراز فريد. ولقد قتل الأستاذ البنا ظلمًا، ومع أنّه أصدر بيانًا عن قتلةِ النقراشي باشا، تحت عنوان: "ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين"، فقد قتل على باب جمعية الشّبان المسلمين.

ويشير الشّكْعة إلى واقعةٍ طريفة تتعلّق بنقل مقرّ الإخوان من غرفة في بيت في حارة عبد الله بيه في حي "اليكنيه"- بالقرب من القلعة- وذاتَ يوم قال له الأستاذ البنا: نريد أن تبحث لنا عن مقرٍّ مناسب في حيّ مناسب بإيجار مناسب، وكان له زملاءُ طلابٌّ في الأزهر من قريته، يسكنون في الطّرف الشمالي من حيّ السيدة زينب في شارع "الناصرية"، حيث وجد بيتًا فيه حديقة، وكان إيجاره جنيهًا وخمسة وعشرين قرشًا، لكنّ صاحب المنزل لم يوافق على أنْ يقوم الشّكْعة بتحرير العقد؛ نظرًا لصغر سنّه، فرجع إلى الأستاذ البنا غاضبًا، فأرسل معه أحدَ الإخوان لتحرير العقد. وانتقلت الإخوان من غرفةٍ إلى شقّة جميلة من حيّ السيدة زينب في شارع الناصرية.

وظلّ الشّكْعة في الإخوان إلى أنْ ذهب مدرّسًا باليمن، وكان قريبًا إلى قلب الإمام يحيى، ولكنّ حالة القطر اليَمني كانت تدعو إلى الشّفقة، فقرًا وجهلًا وتمزّقًا، وفي تلك السّنة حدثت الثورةُ اليمنيّة الأولى، حيث عيّنه الثوّار مديرًا للإذاعة، كما طلبوا من الأستاذ البنّا أن يجيء إلى اليمن كي

يبارك عملهم، ولكنّه اعتذر، وأرسل اثنين؛ أحدهما يمثِّل مكانًا رفيعًا في الجمعيّة، وآخر يرأس تحرير مجلة الإخوان، ولكن الرّجل الذي كان ذا مكانة ظهرتْ منه انحرافاتٌ شديدة، وعندما فشلت الثورة تمّ إلقاء القبض عليهم وسجنوا جميعًا، فكتب خطابًا مفصّلًا إلى الأستاذ البنا، وطالب بفصل هذا الرّجل؛ لأنّ وجوده في الجماعة يسيء إليها، وبعد أسبوعين أو ثلاثة حُلَّت الجماعة، وتمّ إلقاء القبض على الإخوان، وترك الشّكْعة الجماعة وألّف كتابًا عن هذه التّجربة تحت عنوان: "مغامرات مصريّ في مجاهل اليمن".

وفي كلّ الأحوال فقد كان الشّكْعة متعاطفًا مع الإخوان، وكان يقول عنهم: إنّهم بعثوا الدّين مرّةً أخرى في قلب المجتمع، وأحْيوه في النفوس، وأهمّ ما يميّزهم تبنِّيهم للوسطيّة التي يتّسم بها الإسلام.

وفي المجال الدّعوي، يمكن القول إنّه في أثناء عمله ملحقًا ثقافيًّا في أمريكا لمدّة ستّ سنوات تقريبًا؛ أنشأ لجنة اتّحاد الملحقين الثقافيّين العرب في واشنطن، للإسهام في التّعريف بالثقافة العربية في عددٍ غير قليل من الجامعات الأمريكية، وإلقاء المحاضرات في تلك الجامعات عن الثقافة الإسلامية، فضلًا عن إرسال بعض الطلّاب في شكل بعثات إلى الأزهر، وكان من بين الطلاب اثنان من أبناء "أليجا محمد"، الذي كان يدَّعي أنّه رسول لجماعة "المسلمين السود"، الذين لا يمتّون إلى الإسلام بأيّة صلة،

وحينما عاد هذان الطالبان إلى أمريكا حاولا تبصير أبيهما بحقيقة الدّين الإسلامي، ولكنّه لم يمتثل لهما، وبمجرّد وفاته تحول مليونان ونصف مليون من السّود إلى الإسلام، الذي يمثل العقيدة الإلهية السليمة، هذا فضلًا عن أشياء أخرى كثيرة.

ويُذكر للدكتور مصطفى الشّكْعة في هذه الفترة فضلُ إدخال تدريس اللغة العربية في كثيرٍ من الجامعات الأمريكية، فضلًا عن الإسهام من قبل في تطوير الجامعات المصرية منذ سنة ١٩٥٩م، ومراجعة مقرّرات اللغة العربية والتربية الإسلامية في مدارس دولة الإمارات العربية المتحدة، وكتابة بعض المواد العلمية في دوائر المعارف الإسلامية.

-٤-

كان الشّكْعة يوصف دائمًا بالطيبة والتّسامح والتعامل المهذّب حتّى مع خصومه، وكان على علاقةٍ جيدة مع أساتذته ومفكّري مصر الكبار في زمنه الذي كان يحبّهم مثل: الرافعي والعقاد وعبد الوهاب عزام، أو الذين كان يختلف معهم مثل طه حسين، فقد ظلّ على علاقة حسنةٍ به حتّى رحيله، وكان يزوره في بيته ويلقَى منه ترحيبًا كبيرًا ، وقد وصفه الشيخ فرحات المنجي- وهو من علماء الأزهر الشريف- بأنّه كان "رجلًا عالمًا فذًّا امتازَ في إسهاماته الفكريّة بالوسطية والاعتدال والبساطة، وأنّه كان عفَّ اللّسان طوال حياته حتّى في خلافاته مع شيخ الأزهر السابق، وأقرانه في العمل والحياة،

وكان صاحبَ براهين قويّة، لم يُسمع عنه أبدًا أنّه تجرّأ على أحد بالقول أو الفعل، رحمه الله رحمةً واسعةً".

وعلى مستوى الأسرة، فقد كان أبًا مثاليًّا وزوجًا عطوفًا حنونًا، وأوضح ابنه د. حسام الدين مصطفى الشّكعة أنّ والده د. الشّكْعة كان مع أسرته أبًا مثاليًّا يتّسم بالحنان في كلّ مواقفه؛ "حيث رعانا وتفقّدنا في صغرنا وفي كبرنا، وكان شديدَ الحرص على مصلحتنا ومستقبلنا، وكان يقوِّم أخطاءنا بالرّحمة والإقناع والمزاح الجميل، وكان يحثّني- رحمه الله- أنا وإخوتي على صلةِ الرّحم والارتباط ببضعنا في الصّغر والكبر، وخاصّة بعد زواجنا" .

وأشار حسام إلى أنّه- رحمه الله- كان مثالَ الزّوج الرقيق والحنون مع زوجته؛ حيث كانت مواقفه في جميع أحواله تتمتّع بالعطف والحنان واللطف والهدوء، وكان يشعر بمَن حوله، ويتفقّد أحوالهم ويفرح في أفراحهم ويواسيهم في أتراحهم وأحزانهم، وعلّمني وإخوتي تقديمَ الصّدقات للفقراء والمساكين في الأعياد والمناسبات، وكان يقول لنا: لا تنسوا إخوانكم الفقراء في أعيادكم؛ فالأعياد خُلقت لكي نفرح جميعًا، ومَن يفرح وحده لا يقتدي بالرّسول محمد ﷺ. وأكّد أنّ الفقيد كان يلجأ إلى الله تعالى في كلّ أزماته وشدائده، ويبسطها ويقول: "مَن توكّل على الله فهو حسبُه، ومَن لا يثق برحمة الله لا يستحقّ عفوه"، وكان متفائلًا دائمًا لا تفارق البسمة وجهَه؛ حيث تعرّض لحادث سيارة في السبعينيّات،

وأصيبت أعضاؤه بكسور شديدة أدّت إلى بقائه في المستشفى زمنًا طويلًا، إلّا أنّه كان مؤمنًا واثقًا مسرورًا بقدر الله ويقول: "الله يحبّني فابتلاني".

وقد نال الشّكْعة جائزةَ الدّولة التقديرية في الآداب عام ١٩٨٩، وعبّرت الهيئات الثقافيةُ والعلمية عن تقديرها له، فقد نعَتْه المنظمةُ الإسلامية للتّربية والعلوم والثقافة "الإيسيسكو"، يوم رحيله في بيانٍ طويل وسجّلت فيه مآثره وأفضاله على الثقافة العربية والإسلامية، وأشاد البيانُ بجهوده المتميّزة في نشر الفكر الإسلامي. كما نعاه الأزهرُ الشريف للأمّة الإسلامية، وتقدّم لها بخالص العزاء، واحتساب ما قدّمه الفقيد في خدمة الإسلام والدعوة الإسلامية عند الله. وقد نعاه، وأشادَ بفضله عددٌ من أعلام الأمّة العربية والإسلامية من أرقي فضله، ومقدّري دوره.

رحم الله مصطفى الشّكْعة، ونفع بتراثه وعلمه.



نجمُ الدّين أربكان

مجاهدٌ في سبيل العلم والإيمان

- ١ -

في يوم الثّلاثاء السّادس والعشرين من ربيع الأول ١٤٣٢هـ الموافق الأوّل من مارس ٢٠١١م، امتلأت شوارعُ مدينة استانبول بالجماهير التي خرجت وراء جثمان المجاهد نجم الدين أربكان الذي وافتْه المنيّة قبل يومين وهو يعالَج في المستشفى. قدّر بعضُ المراقبين عددَ المشيّعين بثمانمائة ألف تركيّ، في قلبهم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وزعماء الأحزاب والمؤسّسات التركية يتسابقون لحمل النّعش..

كان المشهدُ فريدًا، والوداع عظيمًا؛ لواحدٍ من أهمّ رجالات الإسلام والعلم في الأمّة الإسلامية وتركيا في العصر الحديث. إنّه الرّجل الذي تجرّأ وأعلن عن هويته الإسلامية يومَ كانت الإشارة إلى الإسلام تمثّل جرمًا لا يُغتفر في عاصمة الخلافة الإسلامية، ولكنّ الرجل تجاسر، وأعلن وهو بصددِ إنشاء حزبه المسمّى "الخلاص الوطني"، "أنّ أمّتنا هي أمّة الإيمان والإسلام، ولقد حاول الماسونيّون والشيوعيون بأعمالهم المتواصلة أنْ يُخربوا هذه الأمّة ويفسدوها، ولقد نجحوا في ذلك إلى حدٍّ بعيد: فالتوجيه والإعلام

بأيديهم، والتجارة بأيديهم، والاقتصاد تحت سيطرتهم، وأمام هذا الطّوفان فليس أمامنا إلّا العملُ معًا يدًا واحدة، وقلبًا واحدًا؛ حتّى نستطيع أن نعيد تركيا إلى سيرتها الأولى، ونصل تاريخنا المجيد بحاضرنا الذي نريده مشرقًا.. ".

هذه الكلماتُ كانت بداية تحوّلٍ كبير في تركيا الإسلامية، ومثّلت نقطة الانطلاق لتستعيدَ عاصمة الخلافة هويّتها، ويبدأ الأتراك المعاصرون رحلة التعبير عن إسلامهم وعقيدتهم، في ظلّ قوانين علمانية صارمة ألغت الشريعة، واللغة العربية، ومنعتِ المجاهرة بالإسلام شكلًا أو موضوعًا، باستثناء ما يجري عند الزواج والوفاة.

نجمُ الدين أربكان درس في كلية الهندسة الميكانيكية باسطنبول وتفوّق فيها، وكان أوّلَ دفعته عام ١٩٤٨م، وتمّ تعْيينه معيدًا بالكلية ذاتِها، وحصل على بعثة دراسية إلى ألمانيا عام ١٩٥١م؛ فأحرز درجةَ الدّكتوراه من جامعة آخن الألمانية في هندسة المحرّكات عام ١٩٥٦م، وعمل أثناء دراسته بألمانيا رئيسًا لمهندسي الأبحاث في مصانع محركات "كلوفز- هومبولدت- دويتز" بمدينة كولونيا، وتوصل إلى ابتكارات جديدة لتطوير صناعة محرّكات الدبابات التي تعمل بكلِّ أنواع الوقود.

عاد نجمُ الدين أربكان بعد فترة الدّراسة إلى جامعة اسطنبول، وكان قد حظي بإعجابِ كبار المتخصّصين الألمان في صناعة المحرّكات،

الذين حاولوا إغراءه بالبقاء في ألمانيا، ولكنّه أصرّ على العودة إلى بلاده، وتمّت ترقيته إلى درجة أستاذ مساعد نظرًا لنبوغه وتفوّقه وهو في السابعة والعشرين من العمر، فكان أصغر أستاذ مساعدٍ تعرفه تركيا، ثمّ صار أستاذًا في اختصاص المحرّكات، وهو في التاسعة والعشرين.

بعد عودتِه إلى تركيا كان أوّلُ عمل قام به تأسيسَ مصنع "المحرّك الفضي" بمشاركة ثلاثمائة من زملائه، وقد تخصّص هذا المصنع في تصنيع محركات الديزل، وبدأت إنتاجها الفعلي عام ١٩٦٠م، ولا تزال هذه الشّركة تعمل حتى الآن، وتنتج نحو ثلاثين ألف محرّك ديزل سنويًّا.

-٢-

عُرف أربكان بالتديّن والالتزام الخلقي منذ نشأته صبيًّا، فقد ولد في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٦م بمدينة سينوب التّركية، في أقصى الشّمال على ساحل البحر الأسود، وكانت البيئة الطيبة وجذوره الإسلامية التي تجعل الإسلام غايتها العليا من وراء هذه النّشأة؛ فأربكان ينتمي للأمراء السّلاجقة المعروفين في تاريخ تركيا باسم "بني أجوللري"، وكان جدّه آخرَ وزراء ماليّتهم، ومقرّبًا من السلطان عبد الحميد الثاني، وكان والده مدرّسًا للشّريعة والقانون، بينما كانت أسرة أربكان تلقّب بـ"ناظر زاده"، أي ابن الوزير؛ لذا عُرف بين أقرانه بالاستقامة والسّلوك الرفيع بعيدًا عن مظاهر الانحلال والتّغريب التي أشاعها النظامُ العلماني تشبّهًا بالغرب، وقد

تعرّف على الطريقة النّقشبنديّة وشيخها محمد زاهد كوتكو؛ وهو ما أعانه على الاستقامة دينيًّا من ناحية، ودعّم نشاطه السياسي الذي بدأه عقب تخرُّجه في كلية الهندسة، من ناحية أخرى.

وكان الهاجسُ الذي يشغل أربكان الشّاب هو مواجهةَ العلمانية واستعادة الإسلام في بلد الخلافة، فأنشأ عام ١٩٧٠- بدعم من تحالف طريقته مع الحركة النورسية- حزبَ النّظام الوطني الذي كانً أوّلَ تنظيم سياسي ذي هويّة إسلامية تعرفه الدولة التركية الحديثة منذ زوال الخلافةً عام ١٩٢٤م.

والحركة النّورسية نسبة إلى سعيد النورسي (١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م- ١٣٧٩هـ= ١٩٦٠م) . الدّاعية المجاهد الإسلامي الأشهر في تركيا، وصاحب رسائل النّور التي حافظتْ على معاني الإسلام، وكانت توزّع سرًّا بين الأتراك، ويقومون بنسخها باليدِ لتنتقل من فردٍ إلى آخر، ومن بلدٍ إلى بلد، حيث كان ممنوعًا الاشتغالُ بالدّعوة الإسلامية بالمعنى المعروف في البلاد الإسلامية، وكانت العلمانية تتحكّم في كلّ كلمةٍ إسلامية تخالفها أو تطرح هنا وهناك.

ويعدّ حزبُ النّظام الوطني أوّلَ إعلان إسلاميّ تشهده تركيا بعد سنوات من القمع والكبت للدّين وأهله، ولم يسلمْ هذا الإعلان من حربٍ ضروس شنّها العلمانيون على الرّجل وحزبه، مع ما يتمتّع به من قدرةٍ فنيّة في مجال تخصّصه وكفاءة اقتصادية تحقّقت في المصنع الذي أسّسه،

وكانت أشدّ الحملات من جانب الماسونيّين أنصار زميله ورفيقه في الدّراسة سليمان ديميريل الذي انتمي إلى الماسونية.

وكان أربكان قد نجح في انتخابات مجلس النوّاب التركي، وصار نائبًا عن مدينة قونية التي اشتهر أهلُها بالتديّن، وكانت معقلًا إسلاميًّا على امتداد تاريخ تركيا الإسلامي، وهو ما مكّنه من تأسيس حزبه ذي المرجعية الإسلامية ، ولكنّه لم يصمد غيرَ تسعة أشهر حتّى تمَّ حلّه بقرار قضائيّ من محكمة أمن الدولة العليا، مع قرار بمصادرة أمواله وممتلكاته، بدعوى انتهاكه الدّستور العلماني، والعمل على إلغاء العلمانية، وإقامة حكومة إسلامية في تركيا، والعمل ضدّ مبادئ أتاتورك. وقرّرت المحكمةُ منع أيّ عضوٍ في الحزب من العمل في أيّ حزب آخر، أو تأسيس حزب آخر، أو ترشيح نفسه للانتخابات ولو بشكل مستقلّ، وذلك طيلة ٥ سنوات؛ فغادر أربكان تركيا أواخرَ سنة ١٩٧٠م، قبل أن يعود بدعم من التحالف القديم لتأسيس حزب السّلامة الوطني عام ١٩٧٢م، بأسماء بعض الإسلاميّين ممّن لا ينطبق عليهم حكمُ المحكمة، وأصدر صحيفتَه الرّسمية (مللي غازيته) التي تصدر حتى اليوم.

وقد حظي في عام ١٩٧٣م بعفوٍ أهّله لقيادة حزب "السّلامة الوطني" وخوض الانتخابات، وفاز الحزبُ بـ ٤٨ مقعدًا مكّنته من المشاركة في مطلع عام ١٩٧٤م في حكومةٍ ائتلافيةٍ مع حزب الشّعب الجمهوري

العلماني الذي أسّسه أتاتورك، مستفيدًا من خلافِه مع حزب العدالة شريكه القديم في الوزارة. وصار أربكان نائبًا لرئيس الوزراء ومعه سبع وزارات مهمّة، واستطاع بهذه المشاركة أن يحقّق مكاسبَ كبيرة للإسْلام في تركيا، فقد قدَّم مشروعَ قرار للبرلمان بتحريم الماسونية وإغلاق محافلها في البلاد، كما أسهم في تطوير العلاقاتِ مع العالم العربي، وأظهر أكثرَ من موقفٍ مؤيّدٍ صراحةً للشعب الفلسطيني ومعادٍ للصهاينة.

واستقالت الحكومةُ بعد تسعة أشهر من تشكيلها بسبب الضّغوط العلمانية، ولكنه تمكّن من العودة إلى الحكومة بالعدد نفسه من الوزراء ومقاعدهم في الحكومة السابقة، من خلال ائتلاف مع حزب العدالة التركي الذي يتزعّمه زميل الدراسة سليمان ديميريل. وفي هذه الحكومة تمّت سيطرة الجيش التركي على الجزء الشّمالي من جزيرة قبرص ليؤمّن حياة المسلمين الذين يعيشون في الشّمال القبرصي بعد أن كانوا مهدّدين بالنّفوذ اليوناني المتطرّف الذي تنامى في الجزيرة آنئذ.

في انتخابات ١٩٧٧ تراجع حزبُ أربكان في مجلس النواب، إلى عدد ٢٤ نائبًا، ولكنّ الرجل واصل مسيرته، وخاصّة في مواجهة الصهيونية، وقاد مظاهرة قوامها نصفُ مليون في مدينة قونية- دائرته الانتخابية- يوم السادس من سبتمبر ١٩٨٠ بمناسبة يوم القدس العالمي، وندّد المتظاهرون بالعدوّ الصهيوني واحتلاله لفلسطين.

في اليوم التّالي لهذه المظاهرة الحاشدة، قام الجيشُ التركي بانقلاب عسكري قاده الجنرال كنعان إيفرين لمواجهة ما سمّاه التعصّب الإسلامي الذي بدا في مظاهرة قونية، ووقْف المدّ الإسلامي، وعلى أثر ذلك اقْتيدَ أربكان وعددٌ من أتباعه إلى السّجن بتهمة معاداة العلمانية لقضاء أربع سنوات.

-٣-

لقد كان أربكان يعملُ من خلال النّظام العلماني المعادي للإسلام، فأعلن حرصه على عدم المساس بالنّظام العلماني، ولكنّه كان يسعى إلى الانفتاح بقوة على العالم الإسلامي، وقد زار في الفترات التي تولّى فيها السلطة ليبيا وإيران، وأعلن عن تشكيل مجموعةِ الثّماني الإسلامية التي تضمّ- إلى جانب تركيا- أكبرَ سبع دول إسلامية: إيران وباكستان وإندونيسيا ومصر ونيجيريا وبنجلاديش وماليزيا.

وواصل كفاحَه السلمي من أجل الإسلام والمسلمين، فأنشأ حزب الرّفاه الإسلامي، واستطاع أن يصل عام ١٩٩٤ إلى الحكم بالمشاركة مع حزب الطريق القويم، وشكّل حكومة مع تانسو تشيلر بعد أنْ فاز بـ ١٥٨ مقعدًا، ونجح في أغلب البلديات، وصعد "نجم الدين أربكان" إلى منصب رئيس الوزراء في سنة ١٩٩٦م، وأصبح أوّلَ رئيس وزراء "إسلامي" في تركيا منذ سقوط الخلافة.

ولكنّ الجيش كان له بالمرصاد؛ فقام بما سمّي بانقلابٍ أبيض، ونقل موقع "أخبار العالم" عن مصادرَ مطّلعة أنّ الجيش التركي كان قد قدّم إلى رئيس الوزراء الراحل نجم الدين أربكان ٢٤ مطلبًا لتقوم الحكومة التركية بتنفيذها، تفاديًا لقيام الجيش بانقلاب عسكري، وكان من بين هذه المطالب أنْ يصبح الأذان باللّغة التركية، وأنْ يتمّ حظره باللّغة العربية، غير أنّ أربكان تمكّن من إقناع الجيش بالتنازل عن عدد من هذه المطالب، وتمّ تخفيضها إلى ثماني عشرة مادّة شكّلت بنود الانقلاب العسكري الأبيض الذي وقع في ٢٨ فبراير من عام ١٩٩٧.

وحوكم أربكان ومَن معه، وحُرم من ممارسة السّياسة، وصُودرت أمواله، فأنشأ زملاؤه وتلاميذُه حزب الفضيلة ثمّ حزب السّعادة، وقام آخرون من تلاميذه الشباب بزعامة أردوغان بإنشاء حزبهم المسمّى العدالة والتنمية الذي استفاد من القاعدة الإسلاميّة العريضة التي صنعها أتباع حركة سعيد النورسي، واستطاع أن يفوز بأغلبيّةٍ كبيرة في انتخابات ٢٠٠٢، والانتخابات التّالية ٢٠٠٧، وينفرد بالحكم نحو سبعة عشر عاما حتّى الآن، ويقفز بتركيا من قاع التخلّف والديكتاتورية العلمانية والدّيون الخارجية الثقيلة إلى آفاقِ الحرية النسبية والاقتصاد القوي والاستقرار الملحوظ والتقدّم المستمر.

-٤-

ولا ريبَ أنّ نجاح العدالة والتنمية كان من ورائه نجمُ الدين أربكان الذي علّم تلاميذه الاعتزازَ بالهويّة الإسلامية والجهاد من أجلها، وإن كان أسلوبهم في العمل يختلف عن أسلوبه بحكم التّفاوت في الزّمان والأحوال، ولكنْ بقي الرّجل علامة مضيئة في ريادته للحركة الإسلامية في تركيا المعاصرة، وهو ما عبّرت عنه الجنازة الضخمة التي شيّعته إلى العالم الآخر، فقد كانت تركيا كلّها حاضرةً من خلال ممثّليها وأجيالها المختلفة، وكما عبّرت عنه كلماتهم في رثائه.

فقد نعاه رئيسُ الوزراء التّركي رجب طيب أردوغان بقوله: "لقد كرّس أربكان حياته للتّعليم والتعلم، وقدَّم كلّ حياته لأجل تركيا، وكانت له مكانة كبيرة جدًّا، هو نموذجٌ ومثال لكلّ الأجيال إنسانًا وزعيمًا وأستاذًا، وما تعلّمناه منه مهمّ جدًّا، وسنظلّ نتذكّر شخصيته المجاهدة" .

وقال عبد الله جول، رئيس الجمهورية التركية آنئذ: "تلقّيت خبر وفاة البروفيسور أربكان بتأثّر شديد، أشعر بالحزن الشّديد على فقْدِ رجل العلم والسّياسة والدولة، فالعزاء لكلّ أمّتنا، فقد كان أربكان زعيمًا مثاليًّا، حاز تقديرَ شعبه وحبَّه بالخدمات التي لن تُنسى أبدًا، فهو أهمّ الشّخصيات السياسية في تاريخنا". وأضاف: "لقد عملتُ فترات طويلة معه عن قربٍ

في كثير من الأعمال بكلّ سعادة، وليس هناك شكّ أنّه ترك بصمته في تاريخنا الحديث، فالبروفيسور أربكان جعل كلّ حياته لأجل خدمة الأمّة في كلّ المناصب التي تولّاها، وهو صاحب إسهامات قيّمة في تنمية كلّ المجالات وتطويرها في تركيا، وإنّنا ننعى البروفسيور أربكان دائماً بالحبّ والامتنان والاحترام، وأسأل الله- عزّ وجلّ- أن يرحمه، وأعزّي أمّتنا وعائلته وكلَّ محبيه من حزب السعادة".

وقال رجائي قوطان، رفيقُ درْب المجاهد نجم الدين أربكان، ورئيسُ حزب السّعادة السّابق: "لقد كان همُّ أستاذنا أربكان هو فقط الأمّة الإسلامية، وكلّ مراحل حياته ما كان لا يفكّر إلا لخدمة العالم الإسلامي وتركيا، ولقد كان آخرُ حديثٍ لي معه عن مستقبل الأمّة الإسلامية وتركيا خلال الانتخابات القادمة.

وقال رئيسُ حزب الوحدة الكبرى، ياجين توبجو: نعزّي بكلّ أسى تركيا في وفاة البروفيسور نجم الدين أربكان، الذي يعدّ أحدَ رموز الحياة السياسية والديمقراطية التّركية، فلقد أمضى عمرَه لغايةٍ واحدة؛ وهي الارتقاء بهذا البلد، مدافعًا عن قيمه.

وقال دولت بهتشلي، رئيس حزب الحركة القومية: لقد فقدت تركيا أعزَّ أولادها، الذي احتلّ مكانًا كبيرًا في الحياة السّياسية التركية، وأدَّى ما عليه حتى يوم وفاته.

ونعاه كمال كيليجلر أوغلو، رئيسُ حزب الشعب الجمهوري، بقوله: "لقد تلقَّيت خبر وفاة الأستاذ أربكان بحزنٍ شديد، وأعزِّي تركيا والعالمَ السياسي في وفاة أربكان".

رحمَ الله أربكان، وأنزله منازلَ الأبرار من النبيّين والشّهداء والصالحين.



الشّيخُ/ حافظ سلامة
شيخُ الجهادِ في السّويس

-١-

يحاول اليسارُ المتأمرك والعلمانيّون وأشباهُهم ممّن لا يملكون فكرًا حقيقيًّا أو عقيدة نابعةً من أعماقهم، أنْ يروّجوا لمقولات غير حقيقية ضدّ الإسلام والمسلمين، فيما يتعلّق بثورة يناير٢٠١١م، التي خلعتِ الرئيس المصري السّابق من منصبه، وأتاحت للشّعب المصري أنْ يتنفّس الصّعداء بعد ستين عامًا من الحكم العسكريّ البوليسي الفاشي الذي حكم البلاد والعباد بالحديد والنار.

إنّهم يروّجون أنّ التيار الإسلامي لم يقدّم شيئًا، ويسطو على الثورة ويختطفها، ويحرم صنّاعها الحقيقيّين من قطف الثمار، كما يروّجون لمقولة أنّ الإسلاميّين يريدون إقامة دولةٍ دينية، ولذا يركّزون هجومهم على المادة الثانية من الدستور التي تشير إلى إسلاميّةِ الدّولة، من أجل حذفها متضامنين في ذلك مع قادة التمرّد الطائفي الذين يريدون استئصالَ الإسلام من الواقع الاجتماعي تمامًا.

ويتناسى هؤلاء وأولاء أنّ الثورة قام بها شعبٌ مسلم يحبّ إسلامه، سواء كان دينًا للأغلبية أو حضارةً وثقافة للأقلية، كما أنّ الحياة الديمقراطية

المنشـودة يفترض أنْ يكـون الاحتكام فيها لصندوقِ الانتخابـات، أي مـا يريده الشعب، فإذا أراد الشعب أنْ تكون مصرُ إسلامية، فمِن الواجب أن تنزل الأقليّة من الشيوعيّين الحكوميّين، والطّائفيين المتمرّدين على رأي هذه الأغلبية التي تحفظ لهم حقوقهم الإنسانية. أمّا أن يصرّوا على فرض إرادتهم بطريقةٍ ديكتاتورية وغوغائية، فهذا هو الخلل الذي تجب معالجتُه بالطرق القانونية.

وقد نسي هؤلاء وأولئك أنّ من أهمّ قيادات الثورة إنْ لم يكن أهمّها جميعًا؛ الوجه الإسلامي الذي يمثّله قائد المقاومة في حرب ١٩٧٣م الشّيخ حافظ سلامة، الرجلُ التّسعينيّ الذي لم تمنعه شيخوختُه وجسمُه النحيف الضّعيف من قيادة الثورة في السّويس، والتلاقي مع ثوّار القاهرة في التحرير. وتخلّل ذلك تصديه مع الثوار للقيادات الأمنيّة الفاجرة التي أطلقت الرّصاص على الشباب البريء، فقتلت منهم العشراتِ، وجرحتِ المئات؛ بل الألوف، كما أصدرَ البيانات الملتهبة ضدّ النظام، وضدّ رئيسه الذي دعاه إلى التنحّي وترك السلطة.

-٢-

الشّيخ حافظ سلامة له في نفسي منزلةٌ كبيرة منذ عرفته في بداية السبعينيّات، فقد كان حريصًا أنْ يحضر من السّويس كلّ شهر ليحصل على كميّة من نسخ مجلة الاعتصام- ردّ الله غربتها-؛ لأنّ النّسخ المرسَلة إلى السويس عبر التّوزيع الصحفي لم تكنْ تكفي المنطقة ومحبّيه، فكان بمجرّد الإعلان عن الصّدور يأتي بنفسه ليظفر بالنّسخ التي يريد، أو

ينتظر حتّى عودة المرتجع فيحضر ويحصل على ما يريد، كانت إمكاناتُ المجلّة متواضعة، ولكنّها كانت تحمل رسالةً لفتت إليها الأنظار والقرّاء، وكانت محلّ مطاردة من النّظام بحكم أنّها كانت في ذلك الوقت صوت المعارضة الإسلامية الوحيد تقريبًا، حتّى صدرت مجلة الدعوة في منتصف السّبعينيّات.

أدّى الشيخ حافظ دورًا بطوليًّا في مقاومة شارون وجنوده الذين استغلّوا ثغرة الدّفرسوار في حرب ١٩٧٣م، وعبرُوا إلى الضّفة الغربية من قناة السويس، ولكنه بعد هذا الدّور العظيم كان له دورٌ أكبر في الدّعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وبناء مسجد النّور بالعباسية الذي استولت عليه السّلطة لتحرمه من الخطابة فيه، وسعيًا لتحقيق خطّة تجفيف المنابع التي اتّبعتها لاستئصال الإسلام، ولكنّه في كلّ الأحوال لم يتوقّف عن الخطابة والدّعوة من خلال مدينة السويس التي ضمّت كثيرًا من تلاميذه ومحبّيه، وكان لهم دورٌ كبير في التّضامن الاجتماعي.

الشّيخ حافظ ابنُ بيئةٍ إسلامية طيّبة طاهرة، عملت بمنهج الإسلام في خدمة المجتمع، والمشاركة في قضايا الأمّة والدّفاع عن الوطن ضدّ الغزاة والمحتلين الإنجليز واليهود الصّهاينة.

فقد ولد الشّيخُ حافظ علي أحمد سلامة بالسويس في ٦ ديسمبر ١٩٢٥م، في أثناء الاحتلال الإنجليزي لمصر، وكان حافظ الابنَ الرابع لوالده الحاجّ علي سلامة الذي كان يعمل في تجارة الأقمشة.

بدأ حافظ سلامة حياتَه التّعليميّة في الكتّاب، وتعلّم في الأزهر الشريف، وعمل واعظًا، ومستشارًا لشيخ الأزهر لشئون المعاهد الأزهرية، وأحيل إلى التقاعد عام ١٩٧٨.

انتسبَ للعمل الخيريّ مبكّرًا، وشارك في العديد من الجمعيات الخيرية في السويس، وكان له دورٌ اجتماعيّ وسياسي ونضالي بارز؛ حيث أسهم في دعم المقاومة ضدّ الإنجليز الغزاة، والمشاركة في العمليات الفدائية والتعبئة العامّة للفدائيّين.

بعد نشوب الحرب العالمية الثّانية بين قوات المحور وقوات الحلفاء ودخول السويس ضمن مناطق الصّراع بين الطرفين، هاجر أهالي السويس ليكونوا بعيدًا عن العمليات العسكرية، وهاجرت عائلة الشّيخ حافظ سلامة ورفض أن يهاجر معها، وفضّل البقاء في السّويس، وكان عمره آنذاك ١٩ عامًا، وكان يوفّر نفقاته من إدارته لمحلّ الأقمشة الذي يمتلكه والدُه، ويرسل بقيّة الأرباح لعائلته التي هاجرت إلى القاهرة. وشارك في عمليّات الدفاع المدني لمساعدة الجرحى والمُصابين في العام ١٩٤٤م، كما أسهمَ في مساندة المقاومة الفلسطينية ضدّ العصابات اليهودية المعتدية، وقبض عليه في إحدى العمليات، وحُكم عليه بالسّجن ستّة أشهر، ولكن تمّ الإفراج عنه بعد نحو شهرين عقبَ وساطةٍ من أحد أمراء العائلة المالكة المصرية.

انضمّ الشّيخ حافظ سلامة إلى جماعة شباب سيدنا محمد ﷺ وحزب مصر الفتاة عام ١٩٤٨م، وقد أراد الشّيخ حافظ التطوّعَ في صفوف

الفدائيّين والسّفر إلى فلسطين لقتال العصابات الصّهيونية، لكنّ قيادة جماعته طلبت منه حينذاك عدم السّفر باعتبار أنّ العدوّ الحقيقي لا يزال في مصر، فشكّل أوّلَ فرقة فدائيّة في السويس، كانت مهمّتُها الرئيسية مهاجمةَ قواعد القوات الإنجليزية المرابضة على حدود المدينة، والاستيلاء على كلّ ما يمكن الحصول عليه من أسلحة وذخائر، حيث كان يتمّ تقديمها دعماً للفدائيّين في فلسطين، وبعد هزيمة الجيوش العربيّة انخرط في العمل الخيري والدعوي.

اعتقل الشّيخُ حافظ سلامة في إطار الاعتقالات التي نفّذها النّظام الناصري ضدّ الإخوان المسلمون، وظلّ الشيخ حافظ سلامة في السّجن حتّى أفرج عنه في ديسمبر عام ١٩٦٧م، فاتّجه إلى مسجد الشّهداء بالسويس، وأنشأ جمعية الهداية الإسلامية، وهي الجمعية التي اضطلعت بمهمّة تنظيم الكفاح الشعبي المسلح ضدّ قوات الغزو اليهودية في حرب الاستنزاف منذ عام ١٩٦٧م، وحتى عام ١٩٧٣م.

-٣-

وقد قام الشّيخ حافظ سلامة بدورٍ بارز في عملية رفع معنويات رجال القوات المسلّحة بإنشاء قوافل وعظيّةٍ من علماء الأزهر الذين ركّزوا على فضل الجهاد والاستشهاد وأهميّة المعركة مع العدو وضرورة الانتصار عليه أو الشهادة. وقد أثنى على هذا الدّور اللواء عبد المنعم واصل قائدُ الجيش الثالث الميداني.

وكان دورُه الأعظم هو قيادةَ المقاومة الشّعبية في مدينة السويس، بدءًا من يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣م ضدّ قوات الإرهابي شارون التي عبرت إلى الضّفة الغربية من القناة في ثغرة الدفرسوار كما سبقت الإشارة. وما فعله الشّيخ ورفضه للإنذار الصهيوني بالاستسلام وقيادة المقاومة يمثّل ملحمةً تستحقّ كتابًا بأكمله، ويكفي أنّ الفريق سعد الدّين الشاذلي وصفه قائلًا: "إنّ الشّيخ حافظ سلامة رئيسَ جمعية الهداية الإسلامية، إمامَ وخطيب مسجد الشّهداء؛ اختارته الأقدارُ ليؤدّي دورًا رئيسيًّا خلال الفترة من ٢٣- ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٣ عندما نجحت قواتُ المقاومة الشعبية بالتعاون مع عناصر من القوات المسلّحة في صدّ هجمات العدو.. وإفشال خططه من أجل احتلال المدينة الباسلة".

لم يتوقّف الشّيخ عن الجهاد من أجل الإسلام وتطبيق الشريعة، فقد قاد عملية بناء مسجد النّور من أموال التبرّعات دون مساعدة حكومية، وعارض كامب ديفيد ١٩٧٩ بعد أنْ رفض زيارة السّادات إلى القدس عام ١٩٧٧م، وهذا جعله على رأس قائمةِ اعتقالات سبتمبر ١٩٨١م، وقد أفرجَ عنه بعد اغتيال السادات ليواصلَ الدعوة والعملَ الخيري من خلال مسجد الشّهداء بالسويس المجاهدة، وغيره من المساجد، مع دعمه للمقاومة الفلسطينية، وجهاد الشعوب الإسلامية، ومعارضة الاستبداد وإقصاء الإسلام والمشروعات المشتبه بها في مصر، وتغوّل التمرّد الطائفي الذي تقوده الكنيسةُ الأرثوذكسية في مصر.

وكانت إسهاماتُه في ثورة ٢٥ يناير عام ٢٠١١م واضحة، ويعترف بها الشّرفاء في هذه الثّورة، ويقدّرونها حقّ قدرها. وفي أثناء الاعتصامات والمواجهة مع قوات القمع أصدرَ بيانًا قويًّا يناشد فيه الجيشَ المصري بالتدخّل الفوري لإنقاذ مصر. وطرح من خلالِ بيانه مجموعةً من المطالب تبنّاها الشّباب في ميدان التحرير منها ضرورة تنحّي الرّئيس، وإلغاء الأحكام العرفيّة، وحلّ مجلسي الشعب والشّورى، وتشكيل حكومة إنقاذ وطني.

ولم يكتفِ الرّجل المُسنّ بذلك؛ بل نزل إلى الشّارع، وشارك في اللّجان الشعبية لحماية النّاس والبيوت والشّوارع والممتلكات، وأفاد من علاقاته الواسعة الطيبة بالتّجار والأغنياء في السّويس والمحافظات المجاورة، واستطاع توفير ٥ أطنان من الدّقيق لمخابز السويس بعد اختفاء الخبز، وحدوث أزمة كان صنّاعها يهدفون لقمع المُتظاهرين، ولكنّ الرّجل شكّل مجموعاتٍ من أهل السّويس لتوزيع الخبز مجانًا على المناطق المتطرّفة بالمدينة في «عرب الدّبور» و«القطاع الريفي»، وقام بتوفير كميّات من البطاطس والطّماطم والخضراوات بأسعار من جنيْهين إلى ٢,٥ جنيه، لمواجهة جشع بعض التّجار. وقد شهدت منطقتا السلام وفيصل بالمدينة جهودًا شعبية كبيرة، وتمّ فتح المخابز المغلقة.

وكان يقودُ آلافَ المتظاهرين يوميًّا نحو ميدان الأربعين للتّظاهر والتنديد بالنظام الهالك، والتّعامل الغليظ مع أهالي السويس..

ومازال الرجل بعد النّصر بحمد الله يقوم بدوْره في الدّعوة وخدمة أهالي السويس، بعد أن تنكّر لهم النظامُ والمسئولون الموالون له.

-٤-

وأخيرًا، أودّ أن أشير إلى شيئين يتعلّقان به، وهما من الطّرافة بمكان: الأوّل يتعلق بمطاردة أمن الدّولة والأجهزة الأمنية له لمنعه أو تعطيله عن المشاركة في بعض النّشاطات والاحتجاجات في القاهرة أو غيرها، فكانوا يكمنون له في الطرق التي يعتقدون أنّه سيمرّ منها لإشغاله وتعطيله وتأخيره عن الوصول، ولكنّه بخبرته الطّويلة وذكائه الفطري كان يسلك طرقًا لا تخطر لهم على بال، فيفاجئون به موجودًا في المكان الذي أرادوا حرمانه منه.

الآخر، يتعلّق بشخصه، فهو من القلّة النّادرة في البلاد الذي مازال يرتدي الطربوش الأحمر، وهو ما يدلّ على اعتزازه بنفسه وانتمائه الأزهري، حيث كان بعض أبناء زمانه يعتزّون بالطربوش، وكان في مقدّمتهم الإمام الشهيد حسن البنا، والقارئ الشّهير الشيخ أبو العينين شعيشع.

ومع أنّ السّلطة المصرية على تعاقب حكّامِها لم تكرّم المجاهد العظيم، بل حاصرته ولاحقته وأدخلتْه السّجن؛ فإنّ الجماهير عرفت قدرَه وقيمته، ويكفي أنْ يقال إنّه سيحضر أو يخطبُ في مكانٍ ما فتتحرّك الجماهير وأكثرها من الأجيال الجديدة صوْبَ هذا المكان.

محمّد رجب البيوميّ
العالمُ الأديب

-١-

في عام ٢٠٠٦م، كنت أعملُ في بلدٍ عربي، وذاتَ ليلة انهالت عليّ مكالمات من أصدقاء عديدين، يعزّونني في وفاة العالم الأديب الكبير محمّد رجب البيومي- رحمه الله-، كانت التّعازي مباغتةً بالنسبة لي، بحُكم حرصي على متابعة ما يجري في مصرَ عبر الصحف، والتّواصل مع العديد من الأدباء الأصّدقاء الذين يزوّدونني بما يحدث في مصر أوّلًا بأوّل، ووجدت الصّحفَ المحليّة في البلد العربي الذي أعمل به تنشُر نعيًا للرّاحل الكريم، وبعضَ المقالات تأبينًا له، وعرضًا لأفضاله العلمية والأدبية والخُلقية.

وقرأتُ مقالًا في إحدى الصّحف للدكتور عائض الرّدادي يوم ١٧ يوليو ٢٠٠٦م، فيه رثاءٌ حارّ للدّكتور البيومي، وثناءٌ علي أدبه وفكره وخلقه، ختمه بقوله: "رحم الله البيومي؛ فقد كان عَلَمًا سلكَ نفسه في سلسلة أعلام العرب بإنتاجه أدبًا ونقدًا وكتابة وتاريخًا ومنافحةً ودرسًا وأصالة؛ رأيًا ومنهجًا في زمن الانكسار أمامَ هجمة الثقافة الوافدة".

ثمّ اكتشفت بعد وقتٍ قصير أنّ الصّحف المصرية كانت قد نشرت نعيًا للأستاذ الدّكتور محمّد إبراهيم الفيومي، وهو عالمٌ أزهريّ فاضل- رحمه الله-

شاركت معه في بعض المؤتمرات، وقد أحدثَ التّشابه بين اسمه الأوّل ولقبه مع اسم الدكتور محمد رجب البيومي لبْسًا عند بعض الصّحفيين والكتّاب العرب، فظنّوا أنّ المتوفّى هو البيومي وليس الفيومي الذي توفّي فعلًا، وانتقل إلى جوار ربّه.

الخبرُ غير الصّحيح عن وفاة البيومي كشفَ عن مكانةِ الرّجل في نفوس الأدباء والكتّاب العرب، فقد رأى الرّجلُ منزلته العظيمة في حياته، وقرأها بعينيه قبل أن يلقى ربّه، وهذه القصّة مشابهة لما حدث من قبل لصديقه وأستاذه، صاحب الرسالة "أحمد حسن الزّيات"، الذي أشيع- أيضًا- أنّه توفّي، ولكنّ الزيات استثمر هذه الإشاعة في كتابة مقالٍ جميل، عبّر فيه عن شكره وامتنانه لَمن يحبّونه.

وقد جاءت وفاةُ العالم الجليل الأديب الكبير محمد رجب البيومي يوم السبت الخامس من شهر فبراير ٢٠١١ الموافق للثاني من ربيع الأول ١٤٣٢هـ، في غمرة الأحداث الكبرى التي شهدتها مصرُ بعد تفجّر ثورة الشّعب الفريدة في التاريخ (يناير ٢٠١١م)، فلم يلتفتْ إلى وفاة الرّجل أحدٌ من أهل الإعلام أو الأخبار؛ غير نعي قصيرٍ مدفوع الأجر، نشرته مشيَخة الأزهر في صفحة الوفياتِ بالأهرام، ومقالٌ نشرَه أحدُ تلاميذه في صحيفة أسبوعيّة.

ولا أظنّ أنّ الأمر كان سيختلف كثيرًا لو توفّي البيومي في الأيام العادية، فالرّجل بما يمثّله من دفاعٍ عن الإسلام وحرصٍ على قيمِه وفكْره، لا يعجب القائمين على الصّحافة والإعلام في بلدنا، فمعظمُهم موالٍ لقيمٍ وأفكار أخرى غير التي يؤمن بها البيومي وأهلُ الثقافة الإسلامية العربية.

-٢-

وقد عرفتُ البيومي منذ صباي- أي قبل خمسين سنة تقريبًا- قارئًا لكتبه، ومتابعًا لمقالاته في الرّسالة والثقافة، والأديب، ورابطة العالم الإسلامي، والتضامن الإسلامي، والمنهل، ومجلة الأزهر على عهد الزّيات، وغيرها من المجلات، كما عرفتُه شخصيًّا بعد حين، وزرتُه في بيته ومكتبه أكثرَ من مرّة بالمنصورة، وساعدني في بحوثي ودراساتي، ورأيت فيه نموذجًا للأديب الجادّ المخلص لرسالته القائمة على التصوّر الإسلامي، وقد بهرني بقدرتِه على الحفظ، وهيمنته على الكتابة، وقدرته على الصّياغة الجميلة التلقائية بطريقة لا تتوفّر لكثيرين، لدرجة أنّه يكتب دون مسوّدة، ودون أن يترك مجالًا لتصحيح ما يكتبه، فهو يملك ناصيةَ التعبير والنّحو والبلاغة كأنّها سليقة فيه، وطبعٌ أصيل غير مكتسَب، بل إنّه حين يقتبس عباراتٍ أو فقراتٍ يكتبها من ذاكرته ويتبعها برقم الصّفحة في الكتاب، والجزء إنْ وجد.. وقد رأيتُه يشير إلى قصائدَ لشعراء

مختلفين في مجلّدات الرسالة والثقافة ونور الإسلام، وغيرها، ويذكر رقمَ الصّفحة ورقم الجزء، وكنت أفتح الجزءَ على الصفحة التي ذكرها فأجدُ ما ذكره صحيحًا.. وقد ساعدته هذه الخاصيّة على إقامة الحجّة على كثيرٍ من الكتّاب الذين يخاصمون الإسلام، أو يعادونه بسرعة فائقة.

ومع أنّ الرجل أحرز كثيرًا من الجوائز الأدبية في شبابه، وخاصّة جوائز مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لدرجة أنّ لجنة الجوائز وضعتْ شروطًا لتتيح لغيره من المتقدمين فرصةَ الفوز، وتحدّ من فوزه؛ فإنّ الجوائز التي تمنحها وزارة الثقافة المصرية لم تعرفْ طريقها إليه، بسبب دفاعِه عن الإسلام، بل أنّها عرفت طريقها إلى مَن لا يحسنون الإملاء ولا النّحو ولا يملكون البلاغة ولا الفكر، وكان يقول لَمن حوله حين يسألونه عن عدم فوزه بجوائز الدّولة : إنّني أبحث عن جائزةٍ من الله.

لقد قدّم البيومي إنتاجًا أدبيًّا غزيرًا في مختلف فروع اللّغة العربية والدراسات الإسلامية، وكان حريصًا على نشر ما يكتبُه بأيّة صورة وفي أي مكان، ولو لم يكن هناك عائدٌ ماديّ من وراء نشره، وذلك لخدمة القراء والدين واللغة والأدب.

وذاتَ مرّة كنّا نتشاكى ممّا يفعله بعض الناشرين، فأخبرني أنّه يقبل نشر كتبه دون عائدٍ لتكون بين يدي القرّاء بدلًا من أن تضيع أصولُها هنا أوهناك، في حياته أو بعد مماته.. وقد وجدت نظرتَه صائبة في ظلّ الظلم

الذي يمارسه بعض الناشرين الذين يدفعون للنّاسخ والطّابع والحمّال، ويرون المؤلّف لا يستحقّ شيئًا، كما كان يقول لي بأسًى؛ منتظرا ثوابَه من الله!

-٣-

كتبُ البيومي موسوعةٌ مهمّة ورائعة، ترجم فيها للنّهضة الإسلامية الحديثة من خلال أعلام الإسلام، في خمسةِ مجلّدات ضخمة، وفي الجزء الأخير ترجم لنفسه على غرارِ ما كان يفعله بعضُ السّلف الصالح من الكتاب والمؤلفين، وممّا جاء في هذه التّرجمة:

[الأستاذ الدكتور/ محمّد رجب البيومي، عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة سابقًا، والأستاذ المتفرّغ بقسم الأدب والنقد بجامعة الأزهر. ولد عام ١٩٢٣ في الكفر الجديد التّابعة لمدينة المنزلة بمحافظة الدقهلية بمصر. نال عالمية الأزهر ١٩٤٩، ودبلوم معهد التربية ١٩٥٠، والماجستير ١٩٦٥، والدكتوراه في الأدب والنقد ١٩٦٧] .

كتبَ البيومي في مجلّة الرّسالة الشهيرة منذ عام ١٩٤٨، وكان صديقًا شخصيًّا لأحمد حسن الزّيات والإمام عبد الحليم محمود والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد سيد طنطاوي، وهو تلميذُ محمّد فريد وجدي ومحبّ الدين الخطيب.

وقد عمل مدرّسًا بالإسكندرية عام ١٩٤٨ ثمّ بالفيوم، ولفتَ انتباه وزير التعليم آنذاك، ثمّ عمل أستاذًا بجامعه الأزهر، وأعير إلى السعودية، وكوّن صداقة قوية بصاحب مجلّة المنهل، وأثناء الإعارة فقدَ زوجتَه، وألّف (ديوان حصاد الدّمع) الذي خصّصه كاملًا في رثاء زوجه وأمّ عياله، وذكْر فضائلها ومآثرها، وأثرها الكبير على حياته، ممّا يدلّ على عظم وفائه.

ومن هذا الدّيوان قولُه:

فقدتُ التي كانت تزور سـريرتي ... فما دونها سترٌ على النفس يُسدل

ترى غصصًا في غور نفسي دفينة ... فتعلمها علم اليقين وأجهل

فتغدو نطاسيًّا يعالج مدنفًا ... ليبرئه من دائه وهو معضل

أجل، هي كانت في البلايا طبيبتي ... فيا لجراحٍ بعدها ليس تدمل

فكانت نعيم الله يبهج منزلي ... وها هو ذا عن وجهتي يتحوَّل

تعمر صباها الغضّ في موحش الثرى ... لقد كدت أهوى للثرى فأقبل

هيامًا به إذ صار منزل حسنها ... فما شاقني من بعدها اليوم منزلي

إذا صاحت الأطفال (ماما) فإنني ... بـوازوجتا، ما بين نفسي أولول

وبعد العودةِ من عمله بالسعودية، عيّن عميدًا لكلية اللغة العربية بالمنصورة لمدّة عشْر سنوات.

وله سبعُ بناتٍ وولد واحد هو حسام الذي يعمل طبيبًا للأطفال.

وقد تولّى في عهد شيخ الأزهر السّابق (محمّد سيد طنطاوي) تحرير مجلة الأزهر، فانقطعتُ عن الكتابة فيها كيْلا أحرجه، فالذي كان بيني وبين شيخ الأزهر آنئذ بسبب آرائه وبعض الفتاوى التي أصدرها يضعُ البيومي في حرج كبير، خاصّة وأنّ الشيخ كان ضيّقَ الصّدر، لا يتسامح مع مخالفيه. وكان الدكتور البيومي يعرف ذلك، ويحمد لي أنّني لم أعرّضه لحساسية الشيخ!

كان البيومي الإنسانُ رجلًا مسالمًا إلى أبعد الحدود، ومجاملًا إلى أقصى مدى، ولم تعرَفْ عنه حدّة في الجدال أو الحوار؛ لذا لا تجدُ له خصومات شخصية في المحيط الثقافي أو الجامعي، لقد كان هادئًا بطبعه، ويحاول أن ينظر إلى الأمور من جوانبها الأخرى غير التي يركّز عليها الناس، وهو يعبّر عن طبيعته تلك من خلال قوله: "فأنا إنسانٌ أشفق من قتل البرغوث، وسحق الصّرصور، ويسوءني أن أجد خادمًا تتألّم في منزلي".

وقد انعكست طبيعتُه المسالمة على علاقاته بالسياسة، فلم يأخذ موقفًا حادًّا من السّلطة، وإنْ كان يعارض المواقف التي تخالف الإسلام والحرية من خلال مواقف بعض الكتّاب والمثقفين، سواء كانت تتعلق بالشريعة أو العقيدة أو التعليم أو الثقافة أو غيرها، بل إنّه في حواره مع أصحاب هذه المواقف يفضّل في الغالب ألّا يذكر أسماءهم، اللّهم إلّا إذا كانوا من الأجانب أو من الراحلين، فهو في كلّ الأحيان يريد

أنْ يعيش في سلام لا يترك في نفس خصومه أثرًا من انفعال أو غضب. وقد يرى البعضُ هذه سلبيةً، ولكنّه كان مقتنعًا بها، وكان يرى أنّ اللّددَ في الخصومة يشغله عن القراءة والكتابة، وهو ما لا يستطيع تحمّله.

ولعلّ الموقف البسيط الذي تعرّض له وهو مدرّس في معهد المعلمات بالإسكندرية بعد انقلاب يوليه ١٩٥٢ يكشف لنا عن طبيعته المسالمة، ويوضّح لنا كيف كان تعاملُه مع الآخرين، وخاصّة السّلطة، فقد كانت فسحة الغذاء في اليوم المدرسي طويلة، وكان زملاؤه المدرّسون يجهزون خطبًا تمتدّ إلي الساعة ونصف الساعة لتشغل فترة الفسحة، يلقون فيها كلماتٍ وطنية، وكان قد تكرّر حديثهم عن ثورة الجيش، ومحْو الإقطاع، وإلغاء الألقاب، وحرب القناة، ورأى أنَّ الطالبات ينسحبن ولا يسمعْن، فإنَّ الحديث المكرّر صباحًا ومساءً وفي الظهيرة، قد أدخل السّأم علي نفوسهنّ، فراح البيومي يحاضر في يومِه الأسبوعي عن الشّهيرات من نساء الإسلام، كعائشة وخديجة والخيزران وزبيدة والخنساء، فوجد إقبالًا منقطع النظير، وكأنَّ أحد الزّملاء غاظه هذا التّوفيق؛ فكتب إلي المباحث خطابًا مجهولَ التوقيع يقول إنه معروفٌ بميوله الخاصّة للإخوان المسلمين؛ لذلك لم يتحدّث عن أعمال الثورة المجيدة، وترك الخطاب أثرَه فإذا بزائرٍ رسميّ يأتي إلي مكتب عميدة معهد المعلمات ليسألها عن ميوله الإخوانية، فتشجّعتْ العميدة شجاعة باسلة، وقالت: لم أعرف عنه ولم أسمع عنه إلّا كلّ ولاء وتقدير للثّورة، ولو شممت منه ما يدلّ علي انحرافه

لكنت أوّلَ مطالبة باستبعاده! قال الزائر: ولكنّه لم يتحدَّث إلّا عن النساء المسلمات مثل عائشة وخديجة، ولم يكنْ كبقيّة الزملاء، فابتسمتْ وقالت في وداعة: الطالبات شكون لي أنَّ الحديث متكرّر يسمعنه في الإذاعة المدرسية والإذاعة العامة، ويقرأنه في الجرائد اليومية، وهنَّ لا يستفدن منه، وأمامَ هذه الشكوى طلبت من الأستاذ أن يختار شخصيّات نسائية من التاريخ لتجبر الطالباتِ علي الاستماع ولا يتهرَّبن! وقام بتوجيهي بالحديث عن هؤلاء فصادف حسنَ القبول، فإذا أردتم أنْ أمنعه فلكم ما تشاءون! فقد تحدَّث بأمري وتوجيهي. قال الزائر: حديثُك معقول. وهنا قالت: هل هناك صلةٌ بين عائشة والخنساء، والإخوان المسلمين؟ إنّني لا أجد صلة إطلاقًا! فخرج الزائر دونَ أن يستجوبه، وعلمَ البيومي بما كان من وكيلة الدار، فهرع إلى السّيدة الفاضلة يشكرها! فقالت: لقد أطفأت النار يا رجب، وأعفيتك من المحاضرات نهائيًّا، حضر الطالبات أم لم يحضرن!

-٤-

وهذه القصّة تكشف لنا أنّ الرجل أقرب إلى الموادعة، وليست لديه طاقةُ الدخول في الصّراعات المحتدمة، وكثيرًا ما كان يلجأ إلى التّاريخ ليعبّر من خلاله عن أفكاره ورؤاه وتصوّراته إزاء ما يشغله من أحداث وأحوال معاصره.

لقد نشأ البيومي في بيئةٍ طيبة، مواليةٍ للإسلام، وتعدّ أسرته في زمن صباه من الأسر الرّيفية المثقّفة المتديّنة التي نالت فيها الأمّ قسطًا معقولًا من التعليم، انعكس على ابنها حيث علّمته الكتابة وحفّظته سورًا من القرآن، ووجّهته الوجهة الدينية بحثّه على الصّلاة والالتزام بالأخلاق الإسلامية، وقد سجّل كثيرًا من ذكرياته الأسرية والإنسانية على مدى العقود الثلاثة الأخيرة في مجلة "المنهل" السعودية، وكان يكتب بعضَها باسمه الصّريح، وبعضها الآخر باسمه المستعار "أبو حسام" المأخوذ من كنْيته باسم ولده الوحيد بين أخواته البنات.

ويمكن القولُ إنّ البيومي في تربيته الإسلامية ودراسته الأزهرية، مع ذكاء فطري، وذاكرة قويّة فوق العادية، وموهبة أدبية ملحوظة؛ قد أهلته ليكون باحثًا دءوبًا، وشاعرًا فحلًا، وقصاصًا شائقًا، وكاتبًا للأطفال، فضلًا عن كونه ناقدًا منصفًا، ومنافحًا عن الشريعة والعقيدة والهوية الثقافية بكلّ قوّة وإخلاص.

وكان حصاد ما قدّمه للمكتبة العربية عشراتِ الكتب المهمّة، منها البيان القرآني والبيان النبوي، وخطوات التفسير البياني، والتفسير القرآني، وأدب السيرة النبوية، والأدب الأندلسي، والنقد الأدبي للشعر الجاهلي، ودراسات أدبية (٤ أجزاء)، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٥ أجزاء)، الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، مواقف خالدة لعلماء الإسلام.

وفي المجال الإبداعي أصدر عددًا من الدّواوين، منها: من نبع غسان، وانتصار، وفوق الأبوة، (في كتاب واحد)، وله من الأعمال القصصية فاتنة الخورنق، ومن القصص الإسلامي (جزءان)، ومن قصص الأطفال: المغامر الشجاع، والمهمة العالية، ومؤامرة فاشلة، والفارس الوفي، ويوم المجد، ودجال القرية، والحبل الأسود، والفتاة المثالية، وإلى الأندلس، ورحلة الخير، والله معي، وبطل شيبان، وإلى الإسلام...

لقد رحل محمّد رجب البيومي إلى رحمة الله، تاركًا وراءه من الآثار العلمية والأدبية ما يخدُم به وطنَه وأمّته وهو تحت التراب، وما يثيبه الله عليه نتيجةَ إخلاصه ودفاعه عن الوطن والأمّة والدين، وثقتنا في الله كبيرةٌ أنّه سيحصل على جائزةٍ كبرى، أكبر من جوائز الدّولة وغيرها. رحم الله محمّد رجب البيومي.



سعدُ الدّين الشّاذلي
بطلُ المآذن العالية

-١-

شاءت إرادةُ الله أنْ يظلّ حيًّا حتى العاشر من فبراير ٢٠١١م، ليرى ما جرى لَمَن أهانه ونكّل به، وكان أحدَ مرءوسيه في حرب العبور الظّافرة في رمضان ١٣٩٣هـ = أكتوبر ١٩٧٣م، للأسف لم يصبرْ حتّى السّادسة مساء اليوم التالي ليرى مرءوسه وهو يولّي الأدبار أمامَ هدير الجماهير الغاضبة التي تطالب بإسقاط النظام.

كان بطلُ خطّة المآذن العالية "سعد الدين الشّاذلي"، ورئيس الأركان في الجيش المصري، والقائد الميدانيّ لحرب رمضان، الرّجل الوحيد الذي لم يكرمه النظام المصري السّاقط، ولم يكتفِ هذا النّظام بالجحود تجاه الرّجل الذي أذلّ العدو في الميدان، ولكن لاحقه بالمحاكمات، وأدخله السّجن، ولم يعبأ بما قاله القضاء.

لقد تمّ تجاهله في الاحتفالية التي أقامها مجلسُ الشّعب المصري لقادة حرب أكتوبر وتسلّموا فيها مِن الرّئيس أنور السادات النّياشين والأوسمة، مع أنّ دورَه كان كبيرًا في إعداد القوات المسلّحة المصرية، وفى تطوير وتنقيح خطط الهجوم والعبور، واستحداث أساليب جديدة في القتال،

وفى استخدام التشكيلات العسكرية المختلفة، وفى توجيهاته التي تربّى عليها قادة وجنود القوات المسلحة المصرية.

بعد ١٤ عامًا قضاها في المنفى بالجزائر عادَ إلى مصر عام ١٩٩٢، وقبض عليه فوْرَ وصوله مطار القاهرة، وأجْبر على قضاء مدّة حكم بالسّجن حكم بها عليه دون محاكمة، مع أنّ الأحكام الغيابية تخضع لمحاكَمة أخرى.

لقد وجّهوا للفريق الشاذلي تهمتيْن؛ الأولى: هي نشر كتاب دونَ موافقة مسبقة عليه، واعترف "الشّاذلي" بارتكابها. أمّا التّهمة الأخرى: فهي إفشاء أسرار عسكرية في كتابه. وأنكر الشّاذلي صحّة هذه التهمة بشدّة. وقد استطاع فريقٌ من المحامين الحصولَ على حكم قضائي من أعلى محكمةٍ مدنيّة، ينصّ على أنّ الإدانة العسكرية السّابقة غير قانونية، وأنّ الحكم العسكري الصّادر ضدّه يعدّ مخالفًا للدّستور. وأمرت المحكمةُ بالإفراج الفوري عنه. ومع ذلك، لم ينفّذ هذا الحكم، وقضى الرجلُ بقيّة مدّة عقوبته في السّجن، وخرج بعدها ليعيش معتزلًا في بيته، ولم يظهر إلّا على قناة الجزيرة ليقدّم شهادته على العصر.

الفريقُ الشّاذلي من طرازٍ عسكري رفيع، وسجلّه يشير إلى رجل محترف، لم يشأ أنْ ينشغل بالسّياسة مثلما فعل بعضُ زملائه الذين غرقوا في الصّراعات السياسية إلى آذانهم، وقادوا البلادَ إلى هزيمة مُنكرة مازلنا نعاني من آثارها حتّى اليوم.

-٢-

لقد أسّس الشاذلي (ولد عام ١٩٢٢م في قرية شبرا تنا بمركز بسيون غربية)، أوّلَ فرقة مظلّيّين في الجيش المصري، وقادها في الفترة من ١٩٥٤ إلى ١٩٥٩، وكان قائدًا لأوّل قواتٍ عربية في الكونغو تحت علم الأمم المتحدة من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٦١، وقائدًا للواء المشاة من ١٩٦٥-١٩٦٦، وقائدًا للقوات الخاصّة (المظلات والصّاعقة) من عام ١٩٦٧ إلى ١٩٦٩، وقائدًا لمنطقة البحر الأحمر العسكرية من عام ١٩٧٠ إلى عام١٩٧١.

ثمّ صار رئيسًا للأركان العامّة للجيش، أي القائد الميداني للجيش، من عام ١٩٧١ إلى عام ١٩٧٣م، وفي هذه الفترة عرف الضبّاط والجنود كيف ينْضوون تحت لواء جيشٍ محترف يتكامل فيه جهدُ الضّابط والجندي، وقد كنت- بفضل الله- مجنّدًا مستبقى في هذه الفترة، فرأيت كيف يكون الجنديّ مساويًا للضّابط في القيمة والإنسانية، وكيف يطبّق القانون العسكري على الضباط مثل الجنود داخل المعسكرات وخارجها، ولم يبخل الرجلُ في تقديم الكتيّبات، واحدًا تلو الآخر، لتعريف الجنود والضّباط بواجباتهم وحقوقهم، وكيفية التصرف في المواقف الصعبة، وكيف يكون الفرد مدرّبًا على التعامل مع العدو، ومعرفة لغته العبرية كي يستطيع توقيفه وأسْرَه وفهم غاياته وأهدافه.

كان الشّاذلي جنديًّا محترفًا بحقّ، فهو الذي استطاع أن ينسحب عام ١٩٤١ من الصّحراء الغربية في الحرب العالمية الثانية وهو برتبة ملازم بعد أنْ دمّر المعدات العسكرية للجيش المصري والجيش الإنجليزي، كي لا يستفيدَ منها الألمان الذين كانوا يتقدّمون نحو الإسكندرية.

وهو الجنديّ المحترف الذي قاتل ببسالة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، وكانت القواتُ العربية توشك على النّصر لوْلا المؤامرة الدولية والخيانة الداخلية، فعاد من أرض المعركة يحلُم بيوم تحرير فلسطين من أنياب العدو الغاصب.

وهو الجنديّ المحترف الذي استطاعَ في يونيه ١٩٦٧ أن يدخل فلسطين المحتلة، وكان الجيش المصري عن بَكْرة أبيه قد انسحب، وعادَ إلى غرب القناة، ولكن الشّاذلي لم ينسحبْ إلّا بعد أن توالت عليه النّداءات من القيادة بالانسحاب، فقد كان يقودُ وحدةً من القوات المصرية الخاصّة المعروفة باسم مجموعة الشاذلي في مهمّة لحراسة وسط سيناء، ووسط أسوأ هزيمة شهدها الجيش المصري في العصر الحديث وانقطاع الاتصالات مع القيادة المصرية ونتيجة لفقدان الاتصال بين الشاذلي وبين قيادةِ الجيش في سيناء، فقد اتّخذ قرارًا جريئًا، وعبَرَ بقواته الحدود الدولية إلى فلسطين المحتلّة قبل غروب يوم ٥ يونيو، وتمركز بقوّاته داخل الأراضي الفلسطينية المحتلّة بحوالي خمسة كيلومترات، وبقي هناك يومين إلي أن تمّ الاتصال بالقيادة العامّة المصرية التي أصدرت إليه الأوامر بالانسحابِ فورًا.

فاستجاب لتلك الأوامر وبدأ انسحابه ليلًا قبل غروب يوم ٨ يونيو في ظروفٍ غاية في الصعوبة، أهمّها أنه كان يسير في أرض يسيطر عليها العدوّ تمامًا، ومن دون أيّ دعم جوي، وبالحدود الدّنيا من المؤن، واستطاع بحرفيّةٍ نادرة أن يقطع أراضي سيناء كاملة من الشرق إلى الشّاطئ الغربي لقناة السويس (حوالي ٢٠٠ كم). وقد نجح في العودة بقواته ومعدّاته إلى الجيش المصري سالمًا، وتفادى النّيران الإسرائيلية، وتكبد خسائر محدودة بنسبة ١٠٪ إلى ٢٠٪. فكان آخرَ قائدٍ مصري ينسحب بقواته من سيناء.

-٣-

وفي فترةِ رئاسته للأركان، وضعَ خطّته للهجوم على العدو، واقتحام قناة السويس التي سمّاها "المآذن العالية"، على أساس أنّ ضعف الدفاع الجوي المصري يمنع من القيام بعمليّة هجومية كبيرة.. ولكن مَن قال إنّه لا بدّ من القيام بعملية هجومية كبيرة..؟ من المُمكن القيام بعملية محدودة، بحيث يتمّ عبور القناة وتدمير خط بارليف واحتلال من ١٠ إلى ١٢ كيلومترًا شرق القناة"، وبعدها تتكرّر الهجمات أو القفزات داخلَ الأرض المحتلة حتّى يتمّ تحريرها تمامًا.

وكانت فلسفةُ هذه الخطة تقوم على أنّ للعدو مقتلين: الأول هو عدمُ قدرتها على تحمل الخسائر البشرية نظرًا لقلّة عدد أفرادها. والآخر هو إطالة مدّة الحرب، فهي في كلّ الحروب السابقة كانت تعتمد على الحروب الخاطفة التي تنتهي خلال أربعة أسابيع أو ستّة أسابيع على الأكثر؛

لأنّها خلال هذه الفترة تقوم بتعبئة ١٨٪ من سكانها؛ وهذه نسبةٌ عالية جدًّا. ثمّ إنّ الحالة الاقتصادية تتوقّف تمامًا في الكيان الصهيوني وكذلك التّعليم والزراعة والصناعة؛ لأنّ معظم الذين يعملون في هذه المجالات ضباط وعساكر مجنّدون؛ ولذلك كانت خطّة المآذن العالية تقوم على استغلال هاتين النّقطتين. وعندما يعبر الجيشُ المصري القناة، ويحتلّ مسافة بعمق ١٠: ١٢ كم شرق القناة بطول الجبهة (حوالي ١٧٠ كم) سيحرمُ العدوّ من أهمّ ميْزتين: الأولى حرمانه من الهجوم من الأجناب والمؤخّرة؛ وسيضطرّ إلى الهجوم بالمواجهة، وعندها سيدفع الثّمن فادحًا". الميزةُ الثانية تتمثّل في فقدان العدو للدعم الجوي لأنّ الجيش المصري سيكون في حماية الصّواريخ التي يملكها الدفاع الجوي المصري.

في يوم العاشر من رمضان ١٩٩٣هـ = ٦ أكتوبر ١٩٧٣ في الساعة ١٤٠٥ (الثانية وخمس دقائق ظهرًا) شنّ الجيشان المصري والسّوري هجومًا كاسحًا على العدو، بطول الجبْهتين، ونفّذ الجيش المصري خطّة "المآذن العالية" التي وضعها الفريق الشّاذلي بنجاح غير متوقّع، لدرجة أنّ الشاذلي يقول في كتابه "حرب أكتوبر":

"في أوّل ٢٤ ساعة قتال، لم يصدر من القيادة العامّة أيّ أمر لأي وحدة فرعية.. قوّاتنا كانت تؤدّي مهامّها بمنتهى الكفاءة والسهولة واليسر كأنّها تؤدي طابور تدريب تكتيكي".

بعد أيّام من الانتصار، حدثت الثّغرة في الدفرسوار نتيجة تدخّل السياسة في العسكرية، وصدر وقفُ إطلاق النار، وتمّ تسريح الشّاذلي من الجيش في ديسمبر ١٩٧٣، وتعيينه في السّلك الدبلوماسي سفيرًا لمصر في بريطانيا ثمّ البرتغال، ووقع السّادات اتّفاق كامب ديفيد، التي انتقدها الشّاذلي بشدّة، فهاجمه الإعلام الحكومي وتمّ تقديمُه غيابيًّا إلى المحاكمة بحجّة إذاعة أسرار عسكرية، بعد أنْ كتب الشاذلي مذكّراته التي نشرتها مجلة "الوطن العربي" مسلسلة في باريس، ولجأ الشاذلي إلى الجزائر، قضى هناك أكثرَ من عشْرِ سنوات؛ عاد بعدها إلى مصر ليقتاده النظام الهالك إلى السّجن، وأصرّ النّظام على استمراره في السّجن حتى انتهاء المدّة، مع أنّ محكمة الاستئناف قد برّأته.

خرج الشّاذلي من السجن معتزلًا، يعيش في بيته المتواضع، ولم يظهر إلّا على قناة الجزيرة التي طرح من خلالها آراءَه وأفكاره في سياق توضيح مواقفه وتصوراته. وفي كلّ الأحوال فإنّ الأجيال الجديدة لم تعرف شيئًا عن الرجل الذي كان بطلًا حقيقيًّا لخطّة المآذن العالية بالعبور، وكسر ذراع العدوّ النازي اليهودي الغاصب. لقد كان التّركيزُ الإعلامي منصبًّا على بطل الضّربة الجويّة الأولى وحده، أمّا البطل الأوّل فقد تجاهله النّظامُ البائد، وعتّم عليه، وأقصاه، ولم يردْ ذكرَه أبدًا، بل تحوّل على أطراف بعضِ الأقلام المنافقة إلى شيء آخر!

-٤-

في معرض إقناع الرّئيس السابق بالتنحّي، قال بعضُ أعوانه إنّه يجب ألّا نهين بطلًا من أبطال حرب أكتوبر، ونحن معهم في ذلك، ولكنّهم تناسوا أنّ رئيسهم المخلوع قد أهانَ قائده والبطلَ الأوّل لحرب أكتوبر، وهو سعد الدين الشّاذلي.

كانت جماهيرُ الثورة في ميدان التحرير تريد تشييع جثمان الشّاذلي في جنازة مليونيّة، ولكنّ أعوان النظام شيّعوه من مسجد صغير في مصر الجديدة، وعتموا على مكان المسجد وموعدِ الجنازة التي لم يحضرها مسئولٌ بارز، وكذا لم يحضر العزاء مسئولٌ مهمّ.. الضّباط الشجعان هُم الذين شيّعوه وحضروا عزاءه، والشعب المصري هو الذي احتضنه، وعرف قيمتَه: بطلًا ومجاهدًا وأستاذًا عالميًّا في الفن العسكري، ويكفيه أنّه قدّم مجموعة من الكتب العسكرية المهمّة، منها كتابه المهمّ: حرب أكتوبر؛ الذي يضمّ مذكراته وأحداثَ هذه الحرب، بالإضافة إلى كتبه حول: الخيار العسكري العربي، والحرب الصّليبية الثامنة.. وقد سجّل فترة عمله سفيرًا في كتابه أربع سنوات في السلك الدبلوماسية.

رحم الله سعدَ الدين الشاذلي، وهيّأ له مَن يحتفي به من الأمّة احتفاءً يليق به، ويضعه في مكانته الحقيقية التي حاول الطّغاة زحزحته عنها.

أنور الجندي

المجهولُ.. المعلوم

-١-

سبعة عشر عامًا مضت على رحيله، بعد أنْ عاش أكثرَ من ثمانين عامًا، قضى معظمها منافحًا عن الإسلام وفكره وأدبه ولغته العربية.

لقد لقي ربَّه مساء الاثنين ١٣من ذي القعدة سنة ١٤٢٢هـ، الموافق ٢٨ من يناير ٢٠٠٢م، دونَ أن تحتفي به الصّحافة أو الإعلام مثلما يتمّ الاحتفاء- عادة- بآخرين أقلّ شأنًا، وأدنى جهدًا. وصار الرجلُ مجهولًا لدى الأجيال الجديدة، وإن كان معلومًا لَمن عاصروه، وخاصّة خصوم الإسلام وأعداء الحرية.

على ضفاف النيل، ولد أحمدُ أنور سيد أحمد الجندي.. في الخامس من ربيع الأول من العام خمسة وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة = ١٩١٧م، بقرية النخيلة التابعة لديروط، مديرية أسيوط بصعيد مصر، وهي واحدةٌ من أجمل بلاد الصعيد، حيث تسقيها ثلاثةُ روافد للنيل هي: الإبراهيمية، وبحر يوسف، والدجاوي، وهي المنطقة التي شهدت مولدَ شاعرٍ عظيم في وقتٍ معاصر لأنور الجندي، هو شاعر الكوخ محمود حسن إسماعيل.

حفظَ "أنور" القرآنَ الكريم كاملًا في كتَّاب القرية في سنّ مبكرة، ودرس المرحلة الابتدائية في ديروط، ثمّ حصل على شهادة الثانوية التجارية، فألحقه والده بوظيفة في بنك مصر، ثمّ واصل دراسته في أثناء عمله، حيث التحق بالجامعة الأميركية في الفترة المسائية ليدرس الاقتصاد وإدارة الأعمال، إلى أن تخرّج بعد أن أجاد اللغة الإنْجليزية التي سعى لدراستها حتّى يطّلع على شبهات الغربيّين التي تطعن في الإسلام.

كانت حياةُ أنور الجندي هادئةً ناعمة لوْلا أن واجهها التّحدي فحوّلها إلى حياة ذات أغوار. لقد عمل أنور الجندي بالبنك والصّحافة بعده، وكلاهما شكّل له معضلة نفسية وشرعيّة، وقد واجه الموقف بما ينبغي على رجلٍ مسلم يتحرّى عقيدته وإيمانه، ويحرصُ على التّفريق بين الحلال والحرام، يقول: "امتحنت في العمل الصحفي بمحنةِ العمل مع الماركسيّين، واستطعت بعون الله أنْ أتجاوز إغراءاتهم، وأن أحصر نفسي في حيّز قليلٍ مضحّيًا بكلّ أسباب الكسب والترقي، حتّى أني أمضيت عشر سنوات كاملة دون أنْ أحصل على مكافأة واحدة، وكان عزائي في ذلك عملي الفكري الذي كنت أعدّه وأتفرّغ له ".

-٢-

كانت رحلة التّكوين الفكري لدى أنور الجندي جهدًا ذاتيًّا في جانبها الرئيسي، بحيث يمكن القول إنّ أنور الجندي ثقّف نفسه بنفسه إلى حدّ

كبير، وإنْ كان الأمر يتجاوز ذلك إلى عناصر أخرى، منها عمله الصحفي، ولقاءاته بمجموعة من الشخصيات المهمّة على امتداد حياته وقراءة أعمالهم الفكرية والأدبية، وتأثره بآرائهم، ثمّ طبيعة الأحداث التي مرّ بها الوطن منذ الثلاثينيّات (بداية نشاطه الأدبي والفكري) حتّى رحيله في أوائل القرن الحادي والعشرين، فضلًا عن مشاركاته في الحياة الأدبية والفكريّة على امتداد العالم العربي، وما تثيره هذه المشاركات من إشعال جذوة القراءة والبحث، والإضافة المعرفية.

ولعلّ قراءاته واجتهاداته، وهو شابّ صغير، كانت من وراء محاولاته الأولى في الكتابة والتعبير، فقد كان أوّلُ مقال ينشره في مجلة "أبولو" الأدبية الرفيعة التي كان يحرّرها الدكتور أحمد زكي أبو شادي عام ١٩٣٣، وكانت قد أعلنت عن مسابقة لإصدار عددٍ خاصّ عن شاعر النيل حافظ إبراهيم، فتقدّم أنور الجندي بمقاله، الذي لقيَ قبولًا، وظهر على صفحات المجلة، وكان ذلك دافعًا ليردّد أنور الجندي دائمًا القول: "مازلت أفخرُ بأنّي كتبت في أبولو، وأنا في هذه السّن (١٧) عامًا، وقد فتح لي هذا بابَ النّشر في أشهر الجرائد والمجلات آنئذ، مثل: البلاغ، وكوكب الشرق، والرسالة، وغيرها من المجلات والصحف".

لقد وهبَ حياته لتجليةِ قيم الإسلام وتاريخه والدّفاع عنه، وعبّر عن ذلك بقوله:

"أنا محام في قضية الحُكم بكتاب الله، مازلت موكّلًا فيها منذ بضع وأربعين سنة منذ رفعَ القضية الإمامُ الذي استشهد في سبيلها قبل خمسين عامًا للناس، حيث أعدُّ لها الدّفوع، وأقدّم المذكرات بتكليفٍ بعقدٍ وبيعةٍ إلى الحقّ تبارك وتعالى، وعهدٍ على بيع النّفس لله- سلعة الله الغالية-، والجنةُ هي الثّمن لهذا التكليف"، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

ويشيرُ إلى التغريب وأبعادِه والحافزِ الذي دفعه إلى دراسته وتناوله في كثير من كتبه، واستيعاب مفهوم الإسلام الجامع للدين والدنيا، والعمل والعبادة، والحياة والآخرة، ذلك هو التحدي الذي أذهله ودفعه إلى معرفة أبعاد هذا الخطر، وأساس القضية كلّها والدور الذي يمكن لكتّاب الإسلام أن يقوموا به في سبيل تحطيم هذه الخطّة وتدمير وجهتها. لقد لخّص جهده البحثي العظيم في هذه القضية حين قال:

"قرأت بطاقاتِ دار الكتب، وهي تربو على مليوني بطاقة، وأحصيت في كراريس بعضَ أسمائها. راجعت فهارسَ المجلات الكبرى كالهلال والمقتطف والمشرق والمنار والرسالة والثقافة، وأحصيت منها بعضَ رءوس موضوعات، راجعت جريدة الأهرام على مدى عشرين عامًا، وراجعت المقطم والمؤيد واللواء والبلاغ وكوكب الشّرق والجهاد وغيرها من الصحف، وعشرات من المجلات العديدة والدوريات التي عرفتها في

بلادنا في خلال هذا القرن، كلّ ذلك من أجل تقدير موقف القدرة على التعرّف على (موضوع) معين في وقت ما" (انظر أقوال أنور الجندي، في كتاب :محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، صفحات ٤٧– ٥١).

ولم يتوقّف الأمر على دار الكتب، فقد كان ضيفًا دائمًا إلى وقت متأخر من عمره المديد على مكتبة معهد الدّراسات العربية، التابع لجامعة الدول العربية بجاردن سيتي (شارع الطلمبات)، وكثيرًا ما ذهبت معه إلى المكتبة التاريخية أو قسم الدّوريات المعاصرة المقابل لها، وكنّا نتواعد هناك أحيانًا. (انظر أقوال أنور الجندي، في كتاب :محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، صفحات ٤٧– ٥١)

-٣-

امتاز أنور الجندي– رحمه الله– بالقدرة على التّأليف الموسوعي والمعجمي، وإعداد الكتب الضّخمة الممتدّة التي تتناول جزئيّات كثيرة، وفروعًا شتى؛ ولذا يجد القارئ في مؤلّفاته موسوعات متنوّعة، تتناول: أصول الإسلام، ومناهج العلوم، والأدب العربي، والتاريخ الإسلامي، والدعوة الإسلامية، والأعلام العرب والمسلمين المعاصرين منهم والقدامى، والصحافة الحديثة والمعاصرة، والتبشير والاستشراق والتغريب.

ويمكن للقارئ أنْ يقرأ موسوعة كاملة في موضوع واحدٍ أعدّها أنور الجندي في عشرةِ مجلّدات أو أكثر. أيضًا، فقد ألّف في المجال المعجمي الثقافي أو الفكري- إنْ صحّ التعبير- بما يقدّم للقارئ فكرةً شاملة موجزة إلى حدٍّ ما حول موضوع معين أو فكرة ما.. ولعلّه أوّلُ مَن بعث مصطلح "معلمة الإسلام" إلى النّور ليكون بديلًا عن لفظة المعجم. وقد صنع المعلمة من خمسين مصطلحًا، كلّ مصطلح تضمّه رسالة صغيرة في نحو ثلاثين صفحة من القطْع الصغير، وقد جمعها- رحمه الله- في مجلد ضخم. كما وضع على غرار المعلمة عشراتِ الرّسائل حول بعض القضايا التاريخية والإنسانية والفكرية.

هل يمكن أن نجدَ مؤسّسة رسميّة- أو خاصّة- تتولّى نشر أعمالِه التي جاوزت مائتي مؤلّف، وتقدّمها للأجيال الجديدة؟

(يودّ الكاتب أنْ يشير إلى أنّه أنجزَ كتابًا شاملًا عن حياة الكاتب المجاهد أنور الجندي، حمل عنوان "الزّاهد"، وتمّ نشرُه عن دار البشير للثقافة والعلوم بالقاهرة).



جابر قميحة..

يرحلُ مبتسمًا!

- ١ -

قبل سنواتٍ قليلة من سقوطِ الطّاغية المخلوع حسني مبارك؛ نشر بصّاص في مجلّته الحكوميّة تقريرًا أمنيًّا قديمًا (منذ السبعينيّات في القرن الماضي) على هيئة تقريرٍ مذيّلًا باسمٍ مُستعار لصحفيّ لا وجود له بين أسماء الصّحفيين في النقابة أو المجلّة.

تقريرُ البصّاص الأمنيّ كان يحمل عنوان "المتربّحون بالإخوان"، اتّهمني فيه بالتربّح من الإخوان المسلمين، وحصولي على مبلغ عشرين مليونًا من الجنيهات، ووصفني بأنّني متوسّط القيمة الفكرية، وأنّ كتبي لا تلقى رواجًا ولا إقبالًا، وأنّني أنتمي للإخوان المسلمين لأصلَ بفكْري إلى ما أريد..!

لم تكنِ الحملةُ ضدّي وحدي؛ بل جاءت في إطارٍ أشمل.. ضمّت الدكتور عصام العريان، والدكتور رفيق حبيب، والدكتور جابر قميحة، وغيرهم؛ وحملت تحريضًا رخيصًا ضدّهم بوصفهم يتبنّون الفكر الإسلامي، مع أنّ بينهم كاتبًا مسيحيًّا!

كان الجوّ- آنئذ- ملائمًا للتّحريض، حيث كان النّظام قد بلغ مرحلةً من الوحشية لا تراعي أدنى قواعدِ حقوق الإنسان، أو الالتزام بالقانون والكرامة الإنسانية، وسيطر أتباعُ النّظام على كلّ شيء في الوطن، بدءًا من الوظائف العليا والصحافة والإعلام والثّقافة والتعليم حتّى مفاصل الاقتصاد والمال والشركات والأراضي، وكان البصّاصون- آنئذ- في أوْج قوّتهم وتماهيهم مع أجهزة الأمن الفاجرة التي كانت تقتل وتعذّب وتهتك الحرمات، وتخرجُ أبواقَها في الإعلام الحكومي والمعارضة الكرتونية لتنفي عن المجرمين جرائمهم، وتلصقها بالضّحايا على النّحو الذي عرفه الناس حين قتلوا "خالد سعيد" وقالوا إنّه بلع لفافة بانجو، وقتلوا "سيد بلال" وقالوا إنّه مات بهبوط في القلب!

كان ردُّ فعْلي مباشرًا، وكلّفت محاميًّا برفع دعوى أمام القضاء.. كنت طريح الفراش، وكان المحامي- للأسف- محدودَ الخبرة بمثل هذه القضايا التي تسمّى جرائم النشر، فرفعها في غير المحكمة المختصّة، ولم يقدّم بلاغًا موقعًا منّي، ممّا أدي في النهاية إلى رفض الدّعوى لأسباب إجرائية.

أمّا ردّ الدكتور جابر قميحة فقد اقتصرَ على كتابة مقالٍ سخر فيه من المجلة ومحرّرها، ودافع عمّن اتّهمهم التّقرير مبيّنًا ما يستحقّون من تقدير واحترام، ووضّح ما لَهم من فضلٍ ومكانة في مجال تخصّصاتهم العلمية وأعمالهم الأدبيّة، وعدّ الأمر منتهيًا.

الأمرُ بالنسبة لي لم ينْته، على مستوى المتابعة وفهْم ما يجري في حياتنا العامة، فقد اكتشفتُ مدى تخلّف الأجهزة الأمنية في بلادنا حتّى في محاولاتها الشريرة لتلويث سمعة المعارضين، وعلماء الإسلام والدّعاة إلى الله.. مِن ذلك مثلًا أنّهم أمروا البصّاص بنشر تقارير قديمة تحمل معلوماتٍ تجاوزها الزّمان قبل أربعين عامًا، وكان عائدُ الكتب- آنئذ- لأشهر المؤلّفين لا يتجاوز عشرين ألف جنيه، فكيف يتسنى لي أنْ أحصل على عشرين مليونًا من الجنيهات، والكتاب يُباع بخمسة أو عشرة قروش على الأكثر؟

الطّريف أنّ البصّاص جعل الكاتب المسيحي الذي أدرجه التقرير ضمن المتربحين من الإخوان يعملُ على نشر الفكر الإسلامي! وهو ما يثير الضّحكَ في زمن الاستبداد!

لقد كان هذا التخبّط إيذانًا بانهيار سلطة الاستبداد، وفضح جهاز الأمن على ملأ من الدّنيا كلّها، وشاء الله أن يتحرّر الإسلامُ في مصر، وتعود الكرامة لأبناء الوطن، وأنْ يكتشف الناسُ بالوثائق عملاءَ الأمن والبصّاصين والمنافقين وأعوانَ الاستبداد وعناصرَ الفساد والإفساد!

كان اللافتُ في موقف الدكتور قميحة أنّه لم يعطِ الأمر اهتمامًا يتجاوز المقال الذي سطّره، فهو- وغيره من العاملين في المجال الإسلامي- تعوّدوا على ذلك التشهير منذ زمان بعيد، وقد عاش ما جرى للحركة الإسلامية

طوال ستّين عامًا من تشهير رخيص، وتشويه قبيح، والسّلطة المستبدة الفاسدة تزجّ بالضحايا إلى السجون والمعتقلات والمشانق، وكان منهجُ الإيمان هو الذي يفرض الصمود والصبر والمقاومة، حتّى أذن الله بتحرير الدّين من قبضة الجلادين، والمسلمين من قهر المستبدّين.

- ٢ -

آثرتُ أن أقدّم هذه اللّمحة التي تشير إلى طبيعة ردّ الفعل لدى جابر قميحة على سلوك رخيصٍ لصحفيّ باع نفسه ودينه ووطنه لأجهزة القهر والاستبداد نظيرَ فتاتٍ مسموم، ومنصبٍ زال بعد ثورة التحرير.

وردُّ فعْل قميحة يحمل- فيما يحمل- نمطًا من مواجهة الصّراع مع خصوم الإسلام والحرية؛ يقوم على التسامح، والصّبر على الشّدائد والمكاره، وينصرف إلى ما هو أهمّ: العلم والعمل والعبادة.

ومع أنّ أمر السّلوك الرخيص للصحفي البصّاص لم يزعجني في حقيقة الأمر، فقد رأيتُ في ذلك أنّ التقدّم إلى القضاء بدعوى ضدّه يمثّل عملية ردعٍ له ولأمثاله من البصّاصين الذين استباحوا لحومَ الشّرفاء ممّن يرفضون الاستبداد والطغيان والتسلط، وليعلم مَن ينطق البصّاص باسمهم من الأجهزة المجرمة أنّ هناك مَن يقاوم ولا يخشاهم، وأنّه يلجأ إلى القانون جهارًا نهارًا، دون خوف أو وجل.

وفي كلّ الأحوال فإنّ موقف جابر قميحة المتسامحَ السّاخر من البصّاصين وأمثالهم؛ ينقلنا إلى الإشارة إلى الجانب السّاخر في حياة الرجل وأدبه بصفة عامّة، وقد تولّى الدكتور المهندس "مجدي قرقر" الإفاضة في الحديث عنه، وهو حديث ممتدّ يحمل كثيرًا من الدّلالات التي تعبّر في مجموعها عن استيعاب واعٍ لما يجري في المجتمع والحقل السياسي والثقافي، وفهم عميق للطبيعة البشريّة وميلها إلى المرح، وقدرتها على تجاوز المواقف المأساوية والمريرة بشيءٍ من السخرية والضحك البريء. وللدّكتور جابر موضوعٌ عنوانه "النكتة: أدبٌ وفنّ وإبداع" يرى فيه أنّ الضحك نوعان: ضحك تعبيري، وضحك تعويضي؛ والأوّل مصدرُه شعور الإنسان بالفرح والسّعادة، أمّا النّوع الآخر فسببه تلاحُقُ الشّدائد والمصائب على الإنسان حتى يفقد إحساسَه بها. وأمامَ حالة "عدم المبالاة" هذه يلجأ المرزوء إلى ملء منطقة السعادة المفقودة في شعوره بالضّحك الذي يأخذ صورة السّخرية من ظالميه وأعدائه.. يسخر منهم ويضحك، ويُضحِك الآخرين عليهم؛ منتقمًا منهم بلسانه بعد أنْ عجز عن الثأر منهم بيده، ويجد أنّ أَمْضَى سلاحٍ في هذا المقام هو "النكتة".

وأكثرُ سخرية الدكتور جابر في مصر، وممّن يحكم مصر فـ "كم ذا بمصر من المضحكات ولكنّه ضحكٌ كالبكا"، وهو يستعيد هنا سيرة عبد الله نديم عندما كان يوجّه قذائفه في "التّنكيت والتّبكيت" إلى الاستعمار وعملائه الذين أذلوا مصر في أواخر القرن التّاسع عشر، كما يعود بنا إلى

جذور السّخرية في تراثنا العربي القديم، والحديث من قبيل ما نراه في كتاب "الفاشوش فى حكم قراقوش: تأليف الأسعد بن مماتي"، ونجده لدى الشّعراء والكتّاب: "كشاجم" وابن الرّومي وأحمد شوقي والدّكتور محجوب ثابت، وعبد العزيز البشري، والمازني، وفكري أباظة، وحسين شفيق المصري، وبيرم التونسي، ومحمد مصطفى حمام، وكامل الشناوي وغيرهم. فضلاً عن الإفادة من التّراث الشعبي الذي يحفل بكثير من صور السخرية المريرة والخفيفة، وتعتمد على اللّعب اللّغوية التي تصنعها اللهجة العامية، فتثير الضحك والابتسام وتزيل الهموم، ومن أمثلتها البسيطة:

- سأل أحدهم العطّار، عندك شَبَّة؟ فأجاب: لا والله دا اتجوِّزِتْ امبارح.

- واحد ضرب الرّقم القياسي في الجري.. الرّقم القياسي رفع عليه قضية.

- مرّة أستاذ قال لطلابه: يعيش القرد في جنوب آسيا، فهتف الطلاب: يعيش يعيش يعيش.

- مرّة واحد راح يوكِّل محامي لقاه صايم.

- دكتور أسنان اشترى عود قصب لقاه مسوّس حشاه.

وبصفةٍ عامّة، فالسخرية عند جابر قميحة سخريةٌ هادفة وملتزمة، ولا تخرج عن آداب الإسلام، فهو ابنُ المدرسة الإسلامية التي تعرف معنى

الأدب والانضباط ومراعاةِ الحدود والابتعاد عمّا يشين، أو يمثّل انحرافًا عن القيم الطيبة المضيئة.

وقد امتدّت السخرية عند جابر قميحة إلى كثيرٍ من كتاباته، فقد ضمّنها بعض ما كتبه من شعرٍ ومسرحيات، وما كتبه من مقالات، وخاصّة في مقالات الصراع مع الخصوم السّياسيين، كما كان يحوّلها إلى روح مرحة في علاقاته مع أصدقائه ومعارفه ليؤكّد عمقَ علاقاته بهم والقرب منهم والمودّة معهم.

- ٣ -

لقد كان تكوينُ جابر قميحة وميلُه إلى السّخرية مسوّغًا لرحيله مبتسمًا راضيًا بلقاء الله يوم الخميس ٢٣/ ١٢/ ١٤٣٣هـ، الموافق ٨/ ١١/ ٢٠١٢م. بعد أن ظلّ حتّى آخر لحظة في حياته يكتب دفاعًا عن الإسلام واللغة العربية والحرية، ويواجه المفسدين الفاسدين، والطّغاة الظالمين؛ دون أن ينتظر جزاءً ولا شكورًا إلّا من ربّ العباد.

كانت بداياتُ جابر قميحة في مدينة المنزلة بمحافظة الدقهلية حيث ولد بها (١٢ أبريل ١٩٣٤م)، وحفظ القرآن الكريم، وتعرّف على قيم الإسلام وأخلاقه، والتحق بكلية دار العلوم عام التي تخرّج منها عام ١٩٥٧م، ليحصل على درجة الليسانس في العلوم الإسلامية واللغة العربية، ثمّ يلتحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة فيحصل على اللّيسانس في

القانون عام ١٩٦٥م، ويضيف إلى ذلك دبلومًا عاليًا في الشريعة الإسلامية ١٩٦٧.

وقد أتاح له عملُه في التعليم العامّ مدرسًا ثمّ موجّهًا للغة العربية والتربية الإسلامية فرصةَ خدمة اللّغة العربية والإسلام بين الطلاب في داخل مصر وخارجها، وهو ما شجّعه على مواصلة الدّراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، فحصل على الماجستير من جامعة الكويت عام ١٩٧٤م، ثمّ الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة القاهرة عام ١٩٧٩. وقد أهلّه ذلك للعمل مدرّسًا للأدب العربي الحديث بكلية الألسن بجامعة عين شمس بالقاهرة من ١٩٨٠م، ثمّ أستاذًا مشاركًا، وأستاذًا زائرًا لمدّة عام بجامعة ييل yale بالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٨١-١٩٨٢م. وأستاذًا مُعارًا بالجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد بباكستان من ١٩٨٤-١٩٨٩م، وأستاذًا مشاركًا بجامعة الملك فهد بالظّهران، حيث تقاعد بعدها وتفرّغ لكتاباته ومؤلّفاته التي كان يتوالى إصدارها كتابًا بعد كتاب.

ويلاحَظ أنّه في دراساته وأبحاثه كان متسامحًا حتّى مع أعداء الفكرة الإسلامية، فنجده يتعرّض بالدّرس الموضوعي والبحث العلمي لبعض الشعراء اليساريين مثلما فعل مع الشّاعر اليساري "أمل دنقل" بدراسته التي سمّاها "التراث الإنساني في شعر أمل دنقل"، في الوقت الذي لا

يتسامح فيه اليساريّون والعلمانيون مع الإسلاميين، ويرفضون تناولَ كاتبٍ أو شاعر يحمل ميولًا إسلامية، بل إنّهم من فرْط رغبتهم في الإقصاء والتّهميش والاستئصال لا يعترفون بمَن ينتسبون إلى الإسلام ولا بما يكتبون وينشئون.

كان تكوينُ جابر قميحة الإسلامي والعربيّ دافعًا له إلى ولوج المناطق القريبة من وجدانه، ومن اهتمامات الأمّة العربية الإسلامية المكلومة بجراحات الغزو والاحتلال والاستبداد والتسلّط والظلم العظيم، فكان ذلك من وراء أبحاثه التي ركزت على فلسطين السّليبة، كما نرى في دراسته حول الشّاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود.

وقد اهتمّ بقضية الحرية، كما نجد في دراسته عن المعارضة في الإسلام بين النظرية والتطبيق. وحرص على ترسيخ قيم الإسلام في مواجهة الانحلال والانحراف كما نطالعُ في دراسته عن الأَدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف، ودراسته حول رواية "وليمة لأعشاب البحر" في ميزان الإسلام والعقل والأدب، ودراسته عن صوت الإسلام في شعر حافظ إبراهيم، فضلًا عن دراساته الإسلامية الأخرى حول قيم الإسلام مثلما نجدُ في كتابه "في صحبة المصطفىﷺ"، وكتابه "المدخل إلى القيم الإسلامية"، وكتابه "في رحاب دعوة الإخوان المسلمين".

بل إنّ كتبه التي تبدو بعيدةً عن الكتابة الإسلامية المباشرة حول واقع الأمة ومفاهيم الإسلام؛ تصبّ بطريقة وأخرى في هذا الإطار، كما نجد في كتبه التي تتناول منهج العقاد في التراجم الأدبية، وأدب الخلفاء الراشدين، والتقليدية والدرامية في مقامات الحريري، وأدب الرسائل في صدر الإسلام.

بيدَ أنّ انطلاقة جابر قميحة كانتْ في مجال الشعر، فقد كانت روح الإسلام تكاد تقفزُ من بين حروف كلماته وهو ينشدُ في مناسبات عديدة تعالج جراحات المسلمين وتستدعي تاريخهم المجيد والمضيء، وأذكر أنّنا في اسطنبول عام ١٩٩٤م، وعلى ربْوة بلغراد الخضراء أنشد في حضرة الشّيخ الجليل أبي الحسن الندوي- رحمه الله- ورهط من فُضلاء أهل الأدب والعلم، قصيدته "حديثٌ عصري إلى أبي أيوب الأنصاري"، واندمج في أثناء إلقائه إلي درجة التّماهي مع الزمان التاريخي، والمكان الذي يضمّ رفات الصّحابي الجليل الذي كان في طليعة الموجات الإسلامية الأولى للفتح، فكانت قصيدته استدعاءً حيًّا ونابضًا لتاريخ مجيد وقائد عظيم.

لقد كانت عناوينُ مجموعاته الشّعرية موحية بروحه الإسلامية الوثابة الطامحة إلى الحرية والكرامة والاستقلال:

لجهاد الأفغان أغنّي.

الزّحف المدنس.

لله والحقّ وفلسطين.

حديثٌ عصري إلى أبي أيوب الأنصاري.

على هؤلاء بشعري بكيت.

حول أسماء الله الحسنى.

حسبكم الله ونعم الوكيل.

الإقلاع في البحور السبعة.

وفي كلّ الأحوال، فقد عبّر عن رؤيته الشعرية تجاه العالم ورسالته الأدبية التي نذر نفسه لها من خلال الكلمة الشّرف- الكلمة العرض- الكلمة الجهاد- الكلمة المرتبطة بالله..

"إنّ الكلمة عرضُ الشّاعر

فإذا مالت نحو الدّرك الأدْنى السّافل

في مستنقعِ مدحٍ داعر

بنفاق السّلطان الجائر

كانت لعنة

تطردُ صاحبها مذمومًا

من فردوس الله الأعظم.

***

وأنا عشتُ لقلمي شاعر

عشتُ لقلمي.. ليس بقلمي

عشتُ عزيز النفس أبيًّا.. عاتي الضّرم

حتّى في ظلمات الألم

عشتُ أنيسي صوتُ الله

من عزّته أجني الجاه

وبإحساسي.. وبأعماقي كنتُ أراه".

لقد وقفَ بشعره إلى جانب الأفغان والفلسطينيّين والمسلمين المضطهدين في كلّ مكانٍ في العالم، ورفض الظلمَ والطغيان والاستبداد، وساعدته لغتُه الإنجليزية على اختيار قصائدَ إنسانية لشعراء أجانبَ ترجمها ونشرها في مجلة "الزهور" التي يصدِرها مركزُ الإعلام العربي..

وفي كلّ الأحوال، فقد وظّف شعره من أجل قضايا الأمة المظلومة، ليبثّ فيها روح الجهاد والأمل، ويحارب اليأس والاستسلام.

***

ولا ريبَ أنّ جابر قميحة خطا خطوةً جيدة حين وظّف شعره في مجال المسرح فكتب بعضَ المسرحيّات الشعرية التي أضفى عليها بعضَ سخريته العميقة والمؤثّرة لصنع الدّلالة والمفارقة، وإذا عرفنا أنّ الأدباء الإسلاميّين

لا يتّجهون نحو المسرح إلّا قليلًا، فإنّ إنتاجه المسرحي يعدّ إضافة ملموسة إلى مجال المسرح الإسلامي، والشعري منْه على وجه الخصوص.

وقد ترك لنا- فيما أعلم- مسرحية "محكمة الهزل العليا تحاكم الأيدي المتوضّئة"، ومجموعة مسرحيّات قصيرة بعنوان: "السّيف والأدب ومسرحيات أخرى"، ثمّ مسرحية "الرّؤيا الأخيرة ليوسف الصديق".

- ٤ -

تبقى الإشارةُ إلى جهود الرّجل في مجال الأدب الإسلامي، فقد دافع دفاعًا مجيدًا عن الفكْرة الإسلاميّة في الأدب، فكتب العديد من المقالات والدّراسات التي تنظر للأدب الإسلامي، أو تقدّم نماذج منه تقديماً نقديًّا كما نرى على سبيل المثال في دراسته لشعر نجيب الكيلاني، وقد ضمّت مجلة الأدب الإسلامي الفصليّة، ومجلة المجتمع الكويتيّة، ومجلة الدّارة السعودية، وجريدة آفاق عربية؛ بعضًا من كتاباته في هذا المجال.

كما شارك في عديدٍ من المؤتمرات والنّدوات واللقاءات التي عقدت في أكثر من مدينة عربية وإسلامية، وتناولت موضوع الأدب الإسلامي وقضاياه، وكان لكثرة مواجهاتِه مع المعارضين للأدب الإسلامي يسمّيه الدكتور عبد القدوس أبو صالح "شاعر الرابطة" نسبة إلى رابطة الأدب الإسلامي التي يعدّ جابر قميحة من أبرز أعضائها في مصر، وأشدّهم دفاعًا عن الأدب الإسلامي. وقد كان بشعره يدافع عن الرّابطة وعن الإسلام وعن المسلمين في كلّ الأحوال.

لقد خاضَ جابر قميحة معاركَ عديدةً لإثبات فكرة الأدب الإسلامي وطبيعتها، ولعلّ أبرزَ معاركه في هذا السياق مواجهتُه للدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك، التي دارتْ حول العديد من مفاهيم الأدب الإسلامي وتصوّراته، فقد أصدر الأوّلُ كتابًا حول ما أسماه إشكاليّة الأدب الإسلامي؛ طرح فيه بعض الرؤى التي ناقشها الدكتور قميحة، ومنها على سبيل المثال ما ذكره مرزوق في الفصل الرابع عن العلاقة بين إسلامية الأدب وكوْن الأديب مسلمًا، فيقول تحت عنوان «إسلامي أو مسلم؟»: «لم يحقّق الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك صحّةَ ما نسبه لمحمد قطب عندما قال: لقد فتح الأستاذ محمد قطب البابَ على مصراعيه أمام النقّاد والفنانين الإسلاميين، وبدأ الطّريق فاختار نماذج من الأدب الإسلامي للشاعر الهندي «طاغور»، وللكاتب المسرحي الأيرلندي «ج.م سنج»، وعلى الأدباء والفنانين الإسلاميين أن يواصلوا المسيرة».. ولو رجع إلى كتاب الأستاذ قطب لاكتشف أنّه لم يقل ذلك، بل قال بالحرف الواحد: «والفنّ الإسلامي- من ثمّ- ينبغي أن يصدر عن فنّانٍ مسلم، أي إنسانٍ تكيّفت نفسه ذلك التكيف الخاصّ الذي يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة والواقع بمعناه الكبير، وزوّد بالقدرة على جمال التعبير». أمّا ما يلتقي من الآداب في بعض مضامينه مع التصوّر الإسلامي، وصدر عن غير مسلم كـ«طاغور» وغيره، فيقول عنه إنّه: «بكلّ ما فيه من جمال وروْعة يقوم ابتداء على قاعدةٍ أدنى وأصغر من القاعدة التي ينبغي أن

ينشأ عليها الفن الإسلامي الكوني الإنساني الشامل المتكامل، الذي يشمل كلّ الوجود وكل الإنسان». ويقول عن «طاغور»: «... وهو- في هذا الشأن- لا يلتقي مع المنهج الإسلامي، ولكنّه مع ذلك لا يخرج تمامًا من دائرته، فهناك نقاطُ التقاء كثيرة بين «طاغور» وبين المنهج الإسلامي... نقاط التقاء جزئيّة كلّها، ولكنّها تكفي لإيجاد روابط المودة بينه وبين هذا المنهج، بحيث يذكر معه في حدود هذا الالتقاء». ولهذا فإنّه من الخطأ أن ينسب للأستاذ محمد قطب أنّه أدخل في الأدب الإسلامي أدبًا لغير المسلمين، إنّه قال: هناك نقاط التقاء، ولكنّ الأدب الإسلامي لا يصدر إلّا من مسلم واضح التصور. وما قدمه لـ«طاغور» و«سينج» يتميّز بروح إنسانية متدفّقة، ولكنّ الأستاذ قطب ذكر صراحة أنّ هذا الأدب- وما دار في فلكه- لا يلتقي مع الأدب الإسلامي إلّا التقاءات جزئية، فهو لا يدخل فيه، وإن اقترب كثيرًا منه.

ومن عجبٍ أنّ الدكتور مرزوق يذكر- ويكرّر، ويلحّ في التكرار على- أنّ محمدً قطب قدّم إبداع «طاغور» و«سينج» كنماذج للأدب الإسلامي. والخلاصة: إن محمد قطب وغيرَه من النقّاد الإسلاميّين لم يزعموا أن «طاغور» و«سينج» ومن نسج نسجهما مبدعون إسلاميّون، أو أنّ إبداعهم إبداع إسلامي، كما أنّهم لم يُخرجوا أحدًا من المسلمين من ملّة الإسلام، حتّى لو جاء أدبه سيئًا بذيئًا. ونكرّر أنّ هذا الأدب الإنسانيّ الطيب من أمثال «طاغور» و«سينج» لا يسمّى «أدبًا إسلاميًّا»؛

لأنّ إسلام المبدع شرطٌ أساسيّ للحكم بإسلامية الأدب. وهذا اللون من الأدب سمّاه الإسلاميون «الأدب الموافق»، ويسمّيه الأستاذ الندوي «الأدب الجيد» أو «الأدب الصالح».

ويخلص قميحة بعد مناقشات مفصّلة إلى أنّه «يمكننا أن نصف الأدب ذا الخصائص الإسلامية الذي يصدر من غير المسلمين «بالأدب الموافق» وهي فكرة طيبة تساير سماحة الإسلام، وتوجّهه لكلّ البشر، وكونه خاتم الأديان».

ولا ريبَ أنّ جابر قميحة في دفاعه عن الفكرة الإسلامية في الأدب، ثمّ إنتاجه الأدبي غير القليل؛ يقدّم صورةً من صور الجهاد الرائع، من أجل استعادة الهوية الإسلامية، وتجديد الأدب العربي بما يعيده إلى مساره الطّبيعي، وهو المسار الإسلامي الذي ابتعدَ عنه الأدباء العرب وقتًا ليس قصيرًا منذ هجمت الثقافة الغربية على الثقافة الإسلامية، وهجّرتها إلى طريقٍ آخر مجهول محفوف بالتغريب والبعد عن تصورات الإسلام وقيمه.

رحمَ الله جابر قميحة، وأثابه على ما قدّمه للأمّة والإسلام والوطن.

عبدُ الحميد إبراهيم

صاحبُ الوسطيّة الجديدة

-١-

رحلَ عبد الحميد إبراهيم (١٩٣٧- ٢٠١٢م) بعد حياةٍ علمية وأدبيّة حافلة بالرؤى والمواقف والتصوّرات والمواجهات، وكان في كلّ فعلٍ وقولٍ وفيًّا لإخلاصه وذاته، فأثرى الحياةَ العلمية والثقافية مع صعوبة الحركة المستقلّة داخل حقلٍ ثقافي ملغوم بالولاءات والعداوات والإغراءات والترهيبات، ولكنّه استطاع أن يقول كلمته ويمضي في هدوءٍ دون اهتمام يُذكر من جانبِ أجهزة الإعلام والثقافة التي كان أحدَ فرسانها ذاتَ يوم بعيد!

وقد روى سيرتَه في كتابٍ بعنوان الجذور، وأضاء جوانبَ عديدةً من حياته ومسيرته الفكرية والعلمية بأسلوبٍ أدبيّ ممتع، منذ نشأته الإسلامية في رحاب قريته الزينية، التّابعة للأقصر (كانت ضمن محافظة قنا)، وحفظه القرآن الكريم كاملاً في طفولته، وانبهاره في مرحلة التّكوين بالثقافة الغربية وكتابات المروّجين لها من الكتّاب المصريّين، حتّى إثبات وجوده الأدبي والعلمي في الواقع الثقافي، وتعرفه على العالم الغربي، وخاصّة فترة عمله مدرّسًا في معهد الدراسات الشرقية في لندن لمدّة سنتين، وهناك كان واعيًا

أنّ الحضارة تُقاس بأنفاس الإنسان وليس بالمباني الشاهقة والتقدم المادي، ولذا لم ينخدعْ بروعة مباني لندن وعماراتها وحدائقها ونظافة شوارعها عن إدراك هذه الحقيقة.

كما كان واعيًا بطبيعة المجتمع العربي، وأهمِّ عناصر تماسكه، وفي بعض حواراته الصّحفية قال: إنّ هناك شيئيْن يمسكان بالمجتمع العربي ويحفظانه من السّقوط، هما: العقيدة واللغة، وقد تنبّه الاستعمار إلى هذه المصادر الغنية التي تقوّي المجتمع؛ فأخذ يهاجم العقيدة واللغة، ويدعو إلى إحياء فكرةٍ قديمة تاريخية قد انقرضت، وهي فكرة الفرعونية، مع أنّ الفرعونية ليست حيّةً وليست ثقافة. وذكر أنّها تقوم في جوهرها على فكرة الوثنية وتعدّد الآلهة، وتأليه البشر، وقد اختفت فكرة الوثنيّة الآن تمامًا؛ لأنّ التاريخ الروحي للبشرية قد تجاوزها، ووصل إلى التوحيد من خلال الشرائع السّماوية الثلاثة. ثمّ إنّ الواقع العربي الإسلامي يتمثّل في الجماهير التي تملأ المساجد، وتؤمن بالله الواحد. ففكرة الفرعونية مرفوضة فكريًّا ووجدانيًّا وجماهيريًّا، ولا تمثّل واقعًا حيًّا في الحياة المصرية المعيشة.

بيْدَ أنّ اشتباكه مع الثّقافة الغربية جعله منْذ كان طالبًا في دار العلوم يفكّر في الحوار مع هذه الثقافة ومعطياتها من خلال استغراقه في مطالعتها وقراءة التراث العربي والإسلامي في وقت واحد، ومحاولة اكتشاف الذّات الحضارية للأمّة من خلال أدبها وتاريخها وعقيدتها وشريعتها وحكمتها

وأعلامها وعلومها وتصوّراتها، وجعله هذا الاشتباك يقدّم للحياة الثقافية العربية والإسلامية ثروةً بحثيّة وأدبية كبيرة، فقد ترك عبدُ الحميد إبراهيم الزمبيلي أكثرَ من خمسين مؤلَّفًا في الأدب والنقد والأدب المقارن والبلاغة والإنشاء الأدبي والوصفي؛ قصةً وروايةً وتراثًا وترجمة، ومن أبرز ما تركه:

القصّة المصرية وصورة المجتمع الحديث، الأدب وتجربة العبث، القصة اليمنية المعاصرة، المسرح المصري بين ثلاثة أجيال، القصة في الستينيّات، القصة القصيرة في السبعينيّات، لقطات ترجمة عن آلان روب جرييه، الرعشة الأولى وهؤلاء الأدباء، مقالات في النقد الأدبي (١٥ جزءًا)، قاموس الألوان عند العرب، نقاد الحداثة وموت القارئ.

-٢-

وكان أبرز ما قدّمه هو تأصيلَه لما سمّاه الوسطية العربية في ستة أجزاء، ثلاثة منها تناولتِ المذهب، والتطبيق، والوسطية العربية، وثلاثة أخرى تبدو أقرب إلى التطبيق الأدبي في الرّواية العربية وحلم ليلة القدر والقرآن الكريم والمذهب الوسطي، والأجزاء الستّة تتجاوز ألفي صفحة من القطع الكبير..

لقد خاطب عبدُ الحميد إبراهيم الحياةَ الثقافية بالمذهب الوسطي قبل أربعين عامًا تقريبًا (١٩٧٩م تحديدًا) حين أخرج الجزءَ الأوّل من الوسطية

بعنوان: المذهب، وأهداه إلى النّبيﷺ أوّل مَن بعث عبقرية الصحراء، وإلى الرجل الذي سوف يأتي ليواصل الطريق.

وتنبعُ أهمّية هذا العمل الضّخم من كوْنه يحاول إبراز الهويّة العربية الإسلامية في مواجهة الغرق في متاهاتٍ غريبة وثقافات معادية، ونزعة تخجل من الذات وخصوصيتها، أو تدعو إلى بعث ثقافات انعزالية قديمة، ولذا ينطلق من الواقع، ويستخدم مصطلحات مستمدّة من التاريخ العربي، وينطلق من مذهب أصيل ليحاور من خلاله المذاهب الأخرى مثل الماركسية والوجودية، متجاوزًا مرحلة الدفاع التي يقف عندها كثيرٌ من الباحثين في العصر الحديث.

وقد جاء مشروعُ عبد الحميد إبراهيم في سياق موقفيْن على الساحة الفكرية والثقافية، الأوّل يصرخ مطالبًا بالاستقلال الفكري، والآخر يفسّر تاريخنا- بل ومستقبلنا- على ضوْء ما يوجد في الغرب من وجودية واشتراكية ومدنية.

ولعلّ هذا يفسّر الصّمت على مشروع الرجل كما يظن، فقد قدّم- من وجهة نظره- ملامحَ مذهبٍ مُتكامل ينتزع من البيئة أدلّة تطبيقاته المختلفة على مستوى الممارسة اليوميّة، وعلى الخلق والجمال والفن والأدب والمنهج.

والوسطيّة لدي عبد الحميد إبراهيم تتحدّث بمصطلحات مختلفة عمّا هو سائد في الحياة الثقافية، فهي مثلًا تتحدّث عن الحكمة بدلًا من الفلسفة،

والوحدة التركيبية بدلًا من الوحدة العضوية، ومدارس الخط العربي بدلًا من المدارس التشكيلية الفنية، وعن الغربة بالمفهوم الإسلامي بدلًا من غربة الآلة، وعن السكينة بدلًا من البقاء للأصلح، وعن الدّفع بين الناس بدلًا من الصراع الطبقي، وعن عناية الله التي تحكم التاريخ بدلًا من منطق التاريخ وحتميّته..

في هذا المشروع، يحتلّ العقل مكانتَه الطبيعية، فالوسطية لا تلغيه كما يظنّ بعضهم، ولكنّها تستدعيه بكلّ قوّة، وتدعو إلى استثماره كهبةٍ منحها الله للبشر، فهو ميزان الله في أرضه كما يقول الغزالي، يتعامل به الناس، ويصلون عن طريقه إلى الاختراعات والصناعات.

إنّ الوسطية تحرص على الموازنة بين الخاصّ والعام، وتجمع بين العروبة والإسلام، وهي ليست نظريات؛ ولكنّها حياة يعيشها المسلم، وإذا كان التفكير الثنائي موجودًا عند كلّ الأمم التي لا تعدم مَن يتحدثون عن الإنسان بوصفه مادّة وروحًا معًا، فإنّ الوسطية العربية تبدأ من هذا التفكير الإنساني، ثمّ تسلخ نفسها عنه لتصنع خصوصيتها.

ويمكن القول إنّ الوسطية العربية- كما يراها عبد الحميد إبراهيم- تشبه صقرًا يتمتّع بجناحيْن قويّين، يحفظان توازنَه في السّماء، فإنِ اهتزّ الجناحان أو أحدهما؛ اختلّ التوازن، وسقط على الأرض فريسةً للهوام والدواب.

-٣-

ولعلّ اشتباك عبد الحميد إبراهيم من خلال كتابه الأدب المقارن من منظور الأدب العربي- مقدّمة وتطبيق؛ يمثّل الجهدَ المباشر في إبراز الهوية العربية الإسلامية، فهو يسعى أنْ يكون للأدب المقارن هدفٌ قومي، ويحاول أن يقارن بين ما كتبه الحريري صاحب المقامات من ناحية، وكافكا ورولان بارت من ناحية أخرى، حيث يستعرض الشّخصيات القصصية والمناهج الأدبية لدى الطرفين، ويتناول ما يقدمه نقاد الحداثة العرب، والرّحلة إلى السماء بين إقبال والزبيري، وجريمة قتل بين إليوت وصلاح عبد الصبور، وانتقال المصطلح الأدبي من خلال السعي للمصطلحات الأدبية، ثمّ يختم كتابَه الضخم بالأدب المقارن والصراع الحضاري.

بيْدَ أنّ موقفه من نقّاد الحداثة كان جريئًا وشجاعًا عندما ناقش مقولاتهم ومنهجهم وإنتاجهم باستفاضة، وقدّم البديل العربي الإسلامي في القضايا المطروحة.

وقد رأى أنّ العزلة بلغت ببعضهم أنْ يتعشّق كاتبًا أجنبيًّا، ويتوحَّدُ بأفكاره، فهو يردّد اسمَه في كلّ مناسبة، ويشير إليه في كلّ مرجع، ويصبح في النهاية صدًى له، يودّ حتّى أنْ يتسمّى باسمه لو استطاع.

وهكذا عرفت ثقافتنا العربية المعاصرة مَن يتعصّبون لسوسير حتى أصبح سوسير عربيًّا، ومَن يتعصبون لبوشلار حتّى أصبح بوشلار عربيًّا، ومَن يتعصبون لرولان بارت حتى تحوّل إلى رولان في طبعة عربية.

كما رأى أنّ المصطلحات عند نقّاد الحداثة تبدو في صورة مربكة، وتكون النتيجة أنّ القارئ لا يعرف شيئًا، وقد تحدّى عبد الحميد إبراهيم أيّ قارئ يتمكن من أن يخرج من مؤلّفات نقّاد الحداثة في العالم العربي، بالفارق بين البنيوية وما بعد البنيوية، والحداثة وما بعد الحداثة، والسيميولوجية والتشريحية، والأسلوبية والألسنية، أو يعرف الفروق الدقيقة بين مناهج كلّ من كافكا وبيكيت وسارتر ويونسكو وفولكنر وألان روب جرييه.

إنّ القارئ لا يعرف ذلك لسببٍ بسيط، وهو أنّ المؤلف نفسه لا يفهم ما يقرأ، هو فقط مأخوذٌ بالحداثة، يسرع إلى تقديم المصطلحات الأعجمية، والأعلام الأجنبية، ويكتسب بذلك منزلةً عند القارئ، وتتسابق الصحف وأجهزة الإعلام إلى التقاط همهمته، فهو يعرف ما لا يعرفُ الغير، وهو يجيد ثقافة العالم الغربي أكثر ممّا يجيدُها الآخرون، وهو يرطنُ بلغاتهم، ويتحمّس لأفكارهم أكثر ممّا هم متحمسون.

ويضيف عبد الحميد إبراهيم أنّه من الصعب جدًّا تصنيف أقوال الحداثة في العالم العربي، أو وضعها في سياقٍ منظّم ومفهوم، فهي كثيرة، متداخلة ومتضاربة. لقد ركّزوا في أفكارهم على مسألة موْت المؤلف، والنصيّة، أو ما يمكن أن نسميه بالتّركيز على الشكل، نتيجة للقضية الأولى.

يقول : "أقرأ للواحدِ من نقّاد الحداثة فكأنّي قرأت للجميع، وأقرأ كتابَ الواحد منهم فكأنّي قد قرأت جميعَ كتبه. وما أظنّ أنّ ذلك بسبب ذكاء نادرٍ عندي؛ وإنّما لأن المصادرَ واحدة، واللغة واحدة، بل إنّ المصطلحات والأعلام تكاد تتكرّر من ناقد إلى ناقد، ومن كاتب إلى آخر".

وليس من الصّعب متابعةُ المصادر عند نقّاد الحداثة، فهم يذكرونها ويكرّرونها، ويتباهون بها، ونظرة إلى ثبْتِ المصادر في مؤلّفاتهم، أو إلى فهارس الأعلام عندهم؛ تدلّ على المباهاة الشّديدة بالمصادر الأجنبية، وعلى الولع بترديد الأعلام الإفرنجية.

وهُم بذلك يريدون أنْ يظهروا بمظهر المتعالي على القرّاء، يعرفون ما لا يُعرَف ويردّدون من المصطلحات ما لا يُردَّد، ويلوكون بألسنتهم من الأعلام الأعجمية ما لا تستطيعه ألسنةُ الآخرين، ويضعون الكثيرَ من الكلمات الأجنبية في مقابل مصطلح عربي (انظر كتابه: نقّاد الحداثة وموت القارئ، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤١٥هـ =١٩٩٥م، ص٣-٦).

-٤-

ولعلّ موقفه هذا كان من وراء القطيعة بينه وبين المؤسّسة الثقافية الرسمية التي اتّخذت نهجًا مغايرًا لما يذهب إليه، فتجاهلته، ولم تمنحْه أيًّا من جوائزها، مع أنّ جهاتٍ عديدةً رشّحته، وبيّنت أسباب استحقاقه، وكان هو يدرك أنّ مَن يحصل على جوائز الدولة لا بدّ أن تكون له مواصفاتٌ خاصّة تتعلّق بالسلوك العام، لا تنطبق عليه. وتقتضي من الشّخص- كما يقول- أنْ يعرض نفسه، وأنْ يذلّ كبرياءه، وأن يتوسّل إلى المقرّبين، وأحيانًا يدّعي المرض حتّى يستثير عاطفة الإشفاق عند الذين يمْنحون الجوائز. ويقول: "أنا أرفضُ هذا المنهج السّائد الآن في مصر، وإنْ كان هذا الرّفض قد أبعدني عن الجوائز الحكومية الرسمية".

كان الرجل يملك تاريخًا ثقافيًّا جيدًا يؤهّله للحصول على أعلى الجوائز التي تمنحها الدّولة التي لم تصل إليه، فقد أسّس مركز المخطوطات العربية بجامعة المنيا، وأسهم في تأسيس كلية الآداب بالمنيا، وكلية دار العلوم بالمنيا أيضًا، وكلية الآداب بصنعاء، وقسم اللغة العربية بجامعة سوكوتو بنيجيريا، وكان من أوائل المؤسّسين لمؤتمر أدباء مصر. وكان عميدًا سابقًا لكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا، وأسّس للمؤتمر السّنوي عن طه حسين، وشارك في الحياة الثقافية بالكتابة النقدية عن الإصدارات الجديدة (صدرت في ١٥ جزءًا)، ولكنْ كلّ ذلك لم يشفع للرجل عند مانحي الجوائز الحكومية!

لقد ظلّ يعمل ويقرأ ويكتبُ حتّى آخر أيّامه في الدنيا، وقد هاتفني قبيل رحيله ليبلغني أنّه سيرسل إليّ مجموعةً قصصية وكتابًا آخر في القصص الذي استخرجه من تراث السّيرة النبوية وصاغَه بأسلوبٍ معاصر، وتلقّيت الكتابين، ونشرتُ عنهما خبرًا صحفيًّا، وكان يحدّثني عن بعض أوجه القصور الثقافي الذي يحكم الحياة الثقافية، مع أنّ ظروفه الصحية كانت صعبة للغاية، وفي كلّ الأحوال فقد كان حرصُه على العمل والمشاركة يجعله دائمًا مشغولًا بحركة الفكر والأدب داخل مصر وخارجها، رحمه الله.

عبدُ الصبور شاهين

قمّةٌ شامخة

-١-

قبل عقدين من الزّمان تقريبًا، التقيت به في جناح لإحدى دور النّشر بمعرض القاهرة الدّولي للكتاب. كان اللّقاء الشخًصي الأخير، يومَها سلمت عليه، وبدا أنه نسي اسمي، فقلت له: أنا فلان! فقال: "بتاع الاعتصام"؟! وضحك ضحكة عريضة كان لها معناها ومغزاها!

كانت "الاعتصام" مجلةً إسلاميّة متواضعةَ الإمكانات، ولكنّها كانت تقود المعارضة الإسلاميّة والوطنية كأقوى ما تكون، وخاصّة في مرحلة السبعينيّات، وكان لي شرف الكتابة المتواضعة فيها منذُ أوائل عهد السادات، وكان الرقيب أيّامها يقرأ كلّ كلمة تعدّ للنّشر.. وكثيرًا ما كان يؤجّل بعض الموضوعات، أو يعدل فيها، وأذكر أنّ الدّكتور عبد الصبور شاهين أيامها كان يقدّم برنامجًا في التلفزيون عن علماء الدين والشّريعة، لا أذكر اسمه جيدًا، واستضاف الشيخ الباقوري رحمه الله، وبدا الشيخ متعاطفًا مع السّلطة، وتكلم أنّ الناس درجات، وأنّ القاضي في الزمن القديم يحقّ أن يكون له ركوبة أو بغلة ذات قيمة، وعلى هيئة خاصّة؛ تقديرًا لمكانة القاضي في الزّمان القديم... وخرجت الاعتصام بعناوينَ صارخة

تنتقد الشيخ والدكتور عبد الصبور، وترى في الحديث التلفزيوني تجاوزًا لا يتطابق مع منهج الإسلام في التّواضع والمساواة! المهمّ أنّ لقاءات جرتْ فيما بعد بين المجلة والدكتور عبد الصبور، وتمّت تصفية سوء الفهم، وصار الرجلُ ضيفًا شبه دائم على دار الاعتصام بمؤلّفاته ومقالاته، وواسطة العقد في اللقاءات الفكّرية التي كان يحضرها مفكّرون عرب ومسلمون من العالم الإسلامي.

كان أوّل لقاءٍ لي معه في دار العلوم بوصفي طالبًا، ودخلت مكتبه في المبني القديم لدار العلوم بالمنيرة أسأله عن نطقِ الجيم في بعض القراءات مثل الكاف، وأجابني وضربَ لي مثلًا بقراءة بعضهم لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠)، وقال لي إنّ هناك مَن يقرأها على النحو التالي: حتى يلك، ويكتب فوق الجيم كافًا. كان ذهنُه حاضرًا وساطعًا، وخرجت من هذا اللقاء لأعود إليه ليمتحنني بعد شهور الامتحان الشّفهي للتخرج، ولأحظى بتقديرٍ عال .

كان- رحمه الله- يدرّس لي في سنوات الليسانس علم اللّغة والأصوات، وكان شقيقه الدكتور عبد الرحمن يدرّس لي النحو، وظلّت العلاقة بيننا موصولةً طوال فترة الدّراسات العليا، وهي علاقة طالبٍ بأستاذ، وإن كنتُ قد تخصّصت في قسم آخر غير علم اللّغة واللغات الشّرقية الذي كان رئيسًا له في بعض السنوات.

-٢-

في لقاءِ معرض الكتاب الذي أشرتُ إليه عاليه، حكي لي قصّة ترجمته لكتاب مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية"، وأسهب في الدّرس الذي لقنه له العلامة الراحل "محمود محمد شاكر"، حيث عرض عليه التّرجمة قبل تقديمها للنشر، وقرأ شاكر الترجمة، وراح يطابقها على الأصل الفرنسي، والمترجم الذي هو الشّاب عبد الصبور شاهين يجلس أمامه ويستمع ويتعلّم كيف تكون دقّة التّرجمة من شاكر، وظلّ الأمر على هذا المنْوال من الصّباح حتّى الثامنة مساءً تقريبًا. يقول لي: إنّه خرج من بيت شاكر في مصرَ الجديدة لا يرى الطريق، وإنّه لم يفكّر في ركوب سيارة أو وسيلة مواصلات، ولكنّه كان يبكي وهو سائرٌ في طريقه إلى السّكن الذي يبعد عن بيت شاكر عدّة كيلومترات، ويقول: إنّه عكف على إعادة التّرجمة مرّة أخرى، ولم يخرج من البيت حتّى أتمّها، وعاد بها إلى العلامة محمود شاكر، الذي ابتسم له لأوّل مرّة، وكانت هديّته إليه بعد أن جوّد التّرجمة أنْ كتب مقدّمة مسهبة تجاوزت خمسين صفحة لكتاب الظّاهرة القرآنية، وهي مقدّمة لم يكتب شاكر غيرها لأحد، وكان عبد الصبور بها حفيًّا، ويذكرها في شتّى المناسبات، ويشيد بالدّرس الذي تلقّاه على يد شاكر في ضرورةِ الدقّة والإتقان!

لقد مضى على ظهور الظّاهرة القرآنية قرابة ستين عاما أو يزيد، ومازال تأثيرُه قويًّا في كلّ مَن يطالعه، فضلًا عن كوْنه كان فاتحة خيرٍ بالنسبة

للمترجم الذي ضاقت عليه السبل حين اعتقلته حكومةُ الثّورة عام ١٩٥٥م في حملاتها ضدّ الإسلاميّين عقب حادث المنشيّة الشهير، ثمّ أفرجت عنه في فبراير ١٩٥٦، وكان المترجمُ طالبًا في اللّيسانس، فعاد إلى دار العلوم ليستكمل الفصل الدراسي الثاني ليتخرّج أوّلَ الفرقة بلا منافس، ويلتحق بعدئذٍ بكلية التربية لتأهيل المعلمين، ويلتحق أيضًا بالدراسات التّمهيدية للماجستير بدار العلوم، ولكنّه كان يعاني من همّ ثقيل لا يفارقه وهو توقّع البطالة بسبب نشاطه الإسلامي، فقد دعي لمقابلة مفتّش المباحث في لاظوغلي عقب ما نشرَ عن فوزه على جميع المتسابقين في مسابقة الإذاعة عام ١٩٥٧، فقد قال له المفتّش بعد قليل من السّخرية والاستعلاء "انتَ عاوز تتسلّل إلى الإذاعة من ورانا- اسمع يا واد انتَ مالكش عمل في البلد دي- لا قبل التخرّج من التربية، ولا بعد التخرّج. شوف لك شغلة برّه"، وضغط على الكلمة الأخيرة وكرّرها. وخرج الشاب عبد الصبور من لاظوغلي باكيًا لا يملك دموعه، ولكنّه أقسم ألّا يترك البلد، وسوف يعمل مترجمًا فهو يعرف الفرنسية، وسوف يترجم منها ما يصلح للتّرجمة، وذات يوم كان في دار العلوم فإذا شابّ مغربي اسمه عبد السّلام الهراس- صار رئيسَ جامعة القرويّين في مراكش فيما بعد- يقول له: بترجم كتاب؟ أيْ هل توافق على ترجمة كتاب؟

وقعتْ عليه العبارة كالسّحاب الثّقال على الأرض الميتة، سأله عن الكتاب، وعرف أنّه كتاب "الظاهرة القرآنية"، ووقعت عينُه لأوّل مرّة

على العنوان الذي صار مفتاح المستقبل كلّه بالنسبة له (الظاهرة القرآنية). وكانت بداية اتّصاله بمالك بن نبي المهندس الميكانيكي والمناضل الجزائري ضدّ الاستعمار الفرنسي للجزائر، وقد صارَ لاجئًا سياسيًّا بعد أن هرب من مخالب الشرطة الفرنسية.

لقد طوردَ عبد الصبور في الإذاعة والتّدريس، ولكنّ كتاب الظاهرة القرآنية فتح له الأبوابَ المغلقة، فترجم ثلاثةَ كتب في عام واحد، وحظي كتابُ مالك بن نبي بعد ترجمته بتقديرٍ من كبار الباحثين وأهل الفكر، ويكفي أنْ يقول عنه العلامة محمود محمد شاكر في مقدّمته المسهبة بعنوان "فصل في إعجاز القرآن":

"أحسبُني من أعرفِ النّاس بخطر هذا الكتاب، فإنّ صاحبه قد كتبه لغاية بيّنها، ولأسبابٍ فصّلها، وقد صهرتني المحنُ دهرًا طويلًا، فاصطليت بالأسباب التي دعته إلى اتّخاذ منهجه في تأليف هذا الكتاب، ثمّ أفضيت إلى الغاية التي أرادها، بعد أن سلكتُ إليها طرقًا موحشة مخوفة ....".

ومن كلام شاكر عن الكتاب:

"هذا كتابُ الظاهرة القرآنية

وكفى، فليس عدلًا أن أقدّم كتابًا هو يقدّم نفسه إلى قارئه، وبحسب أخي الأستاذ مالك بن نبي، وبحسب كتابه أن يشار إليه ..".

-٣-

وفي كلّ الأحوال، فقد انفتحت الأبواب أمامَ عبد الصبور شاهين (١٩٢٩ - ٢٠١٠ م)، في الترجمة وغيرها.

فقد ترجم مجموعةً من أعمال مالك بن نبي الأخرى، منها:

- وجهة العالم الإسلامي.

- فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج ١٩٥٧م.

- مشكلة الثقافة.

- ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية.

- شروط النهضة، (بمشاركة عمر كامل مسقاوي).

كما ترجم في مجال تخصّصه الدقيق (علم اللغة):

- العربية الفصحى: دراسة في البناء اللغوي سنة ١٩٦٦م لهنري فليش اليسوعي، وقد ترجمه وهو معيد في دار العلوم .

- علم الأصوات: لبرتيل لومبرج.

وفي مجال الدّراسات الإسلامية، فإنّه ترجم كتاب الدكتور محمد عبد الله دراز، الذي كان رسالته للدكتوراه في السوربون، بعنوان "دستور الأخلاق في القرآن".

وبالإضافة إلى هذه التّرجمات، فقد ألّف في مجال تخصّصه عددًا من الكتب المهمّة، منها:

- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث.
- أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: أبو عمرو بن العلاء.
- عربية القرآن.
- في علم اللغة العام.
- في التطور اللغوي.
- العربية لغة العلوم والتقنية.
- دراسات لغوية.
- المنهج الصوتي للبنية العربية: رؤية جديدة للصرف العربي.

هذا بالإضافة إلى كتبٍ أخرى متنوّعة، في مجال الدفاع عن الإسلام والتعريف به والدّراسات القرآنية، منها: مفصل لآيات القرآن في عشرة مجلدات، وتاريخ القرآن، ومجموعة "نساء وراء الأحداث، وموسوعة "أمهات المؤمنين" و"صحابيات حول الرسول"، ويبقى مؤلّفه الأشهر "أبي آدم" الذي أثار ضجة كبيرة.

وبالمناسبة، فقد نسبت له الصّحف توليده وتعريبه لمصطلح حاسوب، وهو المقابل العربي لكلمة كمبيوتر، وقد أُقرّ هذا المصطلح من قِبَل مجمع اللغة العربية.

خلّف عبدُ الصبور شاهين إنتاجًا علميًّا غزيرًا وصل إلى سبعين كتابًا بين مؤلَّف ومترجَم ومحقَّق.

***

-٤-

لقد صار عبد الصبور شاهين أستاذًا جامعيًّا في دار العلوم بعد أن تخصّص في علم اللّغة، وصار من أشْهر الدّعاة الإسلاميّين في مصر والعالم الإسلامي. وكان خطيب مسجدِ عمرو بن العاص أكبرِ وأقدم مساجد مصر. وأتيح له أنْ يعمل خارج مصر، فعملَ أستاذًا بقَسم الَدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن فترةً من الزّمن. فضلًا عن زيارة العديد من الدول العربية والإسلامية، وإلقاء المحاضرات بها، والمشاركة في الندوات التي دعي إليها هناك.

بقيتِ الإشارة إلى دوْره الدّفاعي عن الإسلام، الذي تمثّل في البرامج الإذاعية والتّلفزيونية التي شارك فيها، ومقالاته وتصريحاته للصحف التي ردّ فيها على كثيرٍ من الخصوم الذين حاولوا النّيْل من الدّين الحنيف، في غمرة بعض الأحداث المؤسفة، التي كان يستغلّها هؤلاء الخصوم للتشويش على الإسلام، والعمل على إلغائه.

لقد كان يدْلي بأحاديثَ صريحةٍ قاطعة في الانحياز إلى الإسلام، وعدم الانسياق وراء موْجات الهجوم المدعومة من جهات الشّر والفساد.. ويلاحظ أنّه كان صلبًا أمام الهجمات العاتية التي قادها بعضُ المنتسبين إلى النّخب الموالية للغرب، والكارهة للإسلام.

لقد استغلّوا تقريره الذي كتبه بعدَ فحص أعمال نصر أبو زيد، وأثبت فيه الخلل المنهجيَّ والقصور العلمي، والكراهيةَ الشديدة من جانب أبو زيد للنصوص القرآنية والنّبوية، وإنكار المصدر الإلهي للقرآن الكريم، والهجوم على الصحابة، والدفاع عن الماركسية والعلمانية وعن سلمان رشدي وروايته (آيات شيطانية)"، ورفعوا فزّاعة التّكفير والوكالة عن الله؛ لإرهابه وإرهاب غيره، ولكنّه ظلّ راسخًا لم يتزعزع، ولم يتأثّر.

لقد قال كلمةَ الحقّ في مواجهة أخطبوط بشع يتسلّح بخدمة السلطة البوليسية الفاشية، ويهيمنُ على وسائل التعبير والإعلام، ولم يتورّع عن ظلم العشرات من الباحثين وطالبي التّرقية الجامعية، ظلماً فاحشًا لم يستطيعوا الحديث عنه كما تحدّثوا هُم عن الباطل الذي صنعوه..

حين أصدر أبو زيد كتابًا رخيصًا يتناول فيه عبد الصبور، ويتّهمه بأنّه يكفّر مَن يفكّر، فإنّ عبد الصبور تسامى على منطق الشّتائم والتجريح الذي يجيده الشيوعيون، وطرحَ القضية من خلال المعضلة الحقيقية التي تواجهها الأمّة (قصّة أبو زيد وانحسار العلمانية).. وبالفعل فقد عرفَ النّاس

أخطار الجريمة التي يخطط لها العلمانيون لتحويل مصر والبلاد العربية عن الإسلام، وترسيخ فكرة التبعية والاستسلام للغرب الاستعماري.

ومن المفارقات أنّ بعضهم- وهو يستعرض تاريخه العلمي بمناسبة وفاته- بدا شامتًا لأنّ القوم كانوا يحتفلون في الوقت نفسه بتأبين نصر في الأوبرا المصرية، ويزعمون أنّ مصر كانت هناك!

بضعةُ أفراد من الشيوعيّين وأشباههم صاروا مصر، ولم يذكروا شيئًا عن جنازة عبد الصّبور الضّخمة المهيبة التي حضرها الآلاف من طلّابه وأحبابه وعامّة الناس!

كان- رحمه الله- قد ذكر لي في لقائي الذي أشرتُ إليه في بداية كلامي، أنّه ينشئ مركزًا إسلاميًّا في منطقة الأهرامات في قطعة الأرض التي اشتراها هناك. وقال لي: إنّه سيقيم مسجدًا ومكتبةً عامّة يضع فيها مكتبته الخاصّة لخدمة الباحثين والقراء، بالإضافة إلى مكتب تحفيظٍ للقرآن، ومسكنٍ يطلّ منه على المركز، ودعاني لزيارته، وللأسف لم تسعفني ظروفي بالزّيارة، وإن كنت قد علمت أنّ المركز تمّ إنجازه قبل سنوات، ويتردّد عليه كثيرٌ من الناس.

لقد كان عبدُ الصبور شاهين عالمًا مجاهدًا بقلمه وصوته وماله، وكان منحازًا للإسلام على مدى حياته؛ في شبابه وشيخوخته، وظلّ يبحث ويعمل من أجل الدين الحنيف حتّى لقي ربّه.

رحَمه الله، وأنزله منازلَ الأبرار والصالحين.

الشّيخ / أبو العينين شعيشع

صوتٌ من السّماء

-١-

في طريق عودتي من القاهرة إلى القرية التي ولدتُ فيها وعشتُ حتّى اليوم حملت معي حفيدتي رُقيّة التي لم تتجاوزِ الثّمانين يومًا، قلت لابني الذي يقودُ السّيارة افتح لنا الإذاعة لنستمع إلى بعض الآيات الكريمة، فجاءنا صوتُ الشّيخ أبي العينين شعيشع ليصل إلى الأعماق سخيًّا نديًّا، هادئًا مليئًا بالشّجن، متماهيًا مع المعاني والدلالات، وكأنّ الدنيا تسمو وترقى لتصلَ إلى السموات العلا، فرحًا بالعطاء القرآني الذي يتجدّد على مدى الأيام، ولا يخلق أبدًا.

تفاءلت بوجودِ الحفيدة مع سماع صوت الشّيخ أبي العينين، وأحسست براحة غامرة وهو يتْلو الآيات الكريمة، ويتفاعل معها، وظللتُ أتابعه حتّى انتهى، ومضينا في الطّريق الطويل نتابع شئونًا أخرى.

الفرحةُ بالتفاؤل في الصّباح لم تكتمل؛ فقد كان المساءُ يحمل خبرَ رحيل الشيخ إلى بارئه الأعلى، وشعر النّاس أنّ جزءًا غاليًا من حياتهم وتاريخهم قد ذهب، وإن بقي أثرُه وعطاؤه ممتدًّا بامتداد الزّمان من خلال التّسجيلات

التي تحفظ ما قدمه الرجل من قراءات على مدى عمره الطّويل الذي ناهز التّسعين عامًا، سواء في الإذاعة أو الحفلات العامّة.

أحببتُ الشّيخ أبا العينين منذ طفولتي، كان صوتُه يشدّني في شجن لا أعرف كنْهَه، ولا مصدرَه، ولكنّي أحسّ عند القراءة أنّه يأخذني معه حتّى يتوقف، ولو لم أدرك معاني الآيات والألفاظ. وكانت ليلة أبي العينين الإذاعية الأسبوعية، ولعلّها كانت ليلة الأربعاء، من الليالي الجميلة في حياتي حيث كنت أستمعُ إليه عبر إذاعة البرنامج العام في الخمسينيّات والستينيّات، وكانت ليالي الصّيف تجمع كثيرًا من أهل القرية ليجلسوا في الخلاء بالقرب من المسجد حيث يذيع جهاز الراديو الوحيد في أحد الدّكاكين صوت الشيخ، وكان هناك مَن ينتظر صوتَ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، ومَن ينتظر صوت الشيخ مصطفي إسماعيل، ومَن ينتظر صوت الشيخ الحصري، أو الشّيخ محمود البنا، أو الشيخ صديق المنشاوي، وأولاده من بعده.

كان شعيشع بالنّسبة لي نفحةً من الغيب حملت أجملَ الكلام في أجمل صور الأداء، وظللتُ حتّى اليوم كلّما سمعته أشعر بنوعٍ من الرّاحة والسكينة قلّما أستشعرهما مع غيره، وكنت كلّما سمعت صوتَه آتيًا من موجةٍ إذاعيّة أو قناة تلفزيونية، أتفرغ له وأستمعُ إليه حتّى ينتهي، وقد فكّرت أن أقابله وأتحدّث معه، ولكنّ حرصي على أنْ تبقى صورةُ القارئ

بعيدةً عن صورة الإنسان نقيّة في مخيلتي منعني من ذلك، ولعله منهجٌ طاردني حتّى يومنا هذا مع كثيرٍ ممّن أحببت من الأعلام، وحرمني من رؤيتهم والتّعامل معهم.

وقد حاول الكاتبُ السّاخر الرّاحل محمود السعدني أن يغيّر صورة الشيخ في ذهني بما وجّهه إليه من نقدٍ بسبب كلامه عن عسكر يوليو، ووصفه لما قال بالكلام الفارغ المضروب حين صرّح بأنّ عسكر يوليو منعوه من القراءة في الإذاعة لأنّه كان قارئ الملك قبل الانقلاب (محمود السعدني، ألحان من السماء، كتاب اليوم، يناير ١٩٩٦م، ص ٦٧وما بعدها). والسعدني يطول لسانُه أحيانًا في غير موضع، ولكنّه تدارك الأمرَ حين وصف الشّيخ شعيشع بأنّه كان أحدَ الأصوات العظيمة في دولة التّلاوة، وقد أحدث في بداية حياته ضجّةً كبيرة في مصر والعالم العربي، لأنّه كان أقربَ الأصوات إلى صوتِ الشّيخ محمد رفعت، ولذا وقع عليه الاختيار لتكملة شرائط الشّيخ محمد رفعت مع زميله الأستاذ الدكتور أحمد هيبة الذي كان يعمل أستاذًا في كلية الزراعة، ولا يستطيع أحدٌ أن يبيّن الفرق بين صوت الشيخ شعيشع والشّيخ محمد رفعت في تلك الأسطوانات والأشرطة إلّا عبقري مثل محمد عبد الوهاب، أو سمّيع قديم وخبير مثل كمال النّجمي.

-٢-

ولدَ أبو العينين شعيشع في مدينة بيلا بمحافظة كفر الشيخ شمال مصر في ٢٢ أغسطس ١٩٢٢م، وهو الابنُ الثاني عشر لأبيه. حفظ القرآن، وذاع صيتُه صبيًّا من خلال حفلٍ أقيم بمدينة المنصورة سنة ١٩٣٦.

ويحكي الشّيخ قصة العددِ الكبير لأسرته متوسّطة الدخل بعد أنْ رزق الله عائلها بأحد عشرَ مولودًا، وكأنّ إرادة السماء ودّت أن تجعلها دستة كاملة، ولكنْ كان الختام مسكًا وكأنّ البيت يحتاج إلى لبنةٍ أو تاج على رءوس هؤلاء. رحل الوالد قبل أن يطمئن على مستقبل أبنائه، وتركهم صغارًا في مراحلَ مختلفة تحتاج إلى وليّ أمر يتولى المسئوليّة كاملة.

يقول الشيخ أبو العينين شعيشع:

"كانت ولادتي غيرَ مرغوب فيها لأنّني كنت الابن رقم ١٢، ووالدتي كانت تفعل المُستحيل للتخلّص منّي، ولكنّي تشبّثت بها حتى وضعتني.. وذلك لحكمة يعلمها الله حيث كنتُ فيما بعد مسئولًا وسببًا في إطعام كلّ هذه الأفواه في ذلك الحين".

التحقَ الشّيخ بالكتّاب في (بيلا) وهو في سنّ السّادسة وحفظ القرآن قبل سن العاشرة. ثمّ ألحقته والدتُه بالمدرسة الابتدائية لكي يحصلَ على شهادة كبقية المتعلّمين من أبناء القرية، ولكنّ الموهبة تغلّبت على رغبة الوالدة.

كان الشّيخ أبو العينين يخرج من المدرسة ويحمل المصحفَ إلى الكتّاب، وكان حريصًا على متابعة مشاهير القراء وتقليدهم، وساعده على ذلك جمالُ صوته وقوتِه، ورقّة قلبه ومشاعره، وحبّه الجارف لكتابِ الله وكلماته، فشجّعه ذلك على القراءة بالمدرسة أمام المدرّسين والتلاميذ كلّ صباح، وخاصّة في المناسبات الدينية والرّسمية التي يحضرها ضيوف أو مسئولون من التّربية والتعليم؛ فنال إعجابَ المستمعين واحترامهم. وكان ناظرُ المدرسة أوّلَ الفخورين به، وبنبوغه القرآني، ولاحظ الناظر أنّ هذا الطفل يعتزّ بنفسه كثيرًا ويتصرّف وكأنّه رجل كبير، ولا تظهر عليه ميولُ اللّهو واللعب والمزاح كغيره من أبناء جيله، فأشار على والدته بأنْ تذهب به إلى أحد علماء القراءات والتجويد لعلّ ذلك يأتي بالخير والنّعمة التي يتمنّاها كلّ أب لابنه، وكلّ أمّ لابنها.

وفي عام ١٩٣٦، دخل الشّيخ أبو العينين دائرة الضوء والشّهرة من أوسع الأبواب عندما أرسل إليه مديرُ الدّقهلية (= المحافظ الآن) يدعوه لافتتاح حفل ذكرى الشهداء بمدينة المنصورة.

وذهب إلى المنصورة لابسًا بدلة وطربوشًا، يقول الشّيخ: "وكانت المفاجأة التي لم أتوقّعها في حياتي؛ وجدت أكثر من ٤ آلاف نفس في مكان الاحتفال، فقلت: معقول أقرأ أمام هذا الجمع؟! كانت سنّي وقتها ١٤ سنة، وخفت، وزاد من هيبتي للموقف أنّني رأيت التلاميذ في مثل سنّي

يتغامزون ويتلامزون لأنّني في نظرهم مازلت طفلًا، فكيف أستطيع أنْ أقرأ في حفل لتكريم الشهداء؟ وقرأت الافتتاح والختام وفوجئت بعد الختام بالطّلبة يلتفّون حولي يحملونني على الأعناق يقدّمون لي عبارات الثّناء. فلم أستطع السّيطرة على دموعي التي تدفّقت، قطرة دمع للفرحة تدفعها أخرى؛ لأَنّ والدي مات ولم يرني في مثل هذا الموقف، وتوالت الدموع، دمعة الحزن تدفع دمعةَ الفرح، وهكذا حتّى جفّ الدّمع، لكي أبدأ رحلة على طريق الأمل والكفاح الشّريف متسلّحًا بسيف الحياء والرّجاء آملًا في كرم الكريم الذي لا يردّ مَن لجأ إليه".

وعندما توفّي الشّيخ الخضري شيخ الجامع الأزهر بعد حفل الشهداء بالمنصورة، أشار أحدُ علماء بيلا على الشيخ شعيشع أن يذهب معه إلى القاهرة ليقرأ في عزائه الذي أقيم بحدائق القبة. وقرأ وكانَ موفّقًا فازدحم السّرادق بالمارّة في الشوارع المؤدّية إلى الميدان، وتساءل الناس: مَن صاحب هذا الصّوت الجميل؟! وبعد أكثر من ساعةٍ صدّق الشيخ أبو العينين ليجد نفسَه وسط جبلٍ بشري تكوّم أمامه لرؤيته ومصافحته إعجابًا بتلاوته. وبعد هدوء عاصفةِ الحبّ جاءه شيخ جليل وقبّله؛ وهو الشّيخ عبد الله عفيفي- رحمه الله- وقال له: لا بدّ أن تتقدّم للإذاعة لأنّك لا تقلّ عن قرّائها؛ بل سيكون لك مستقبلٌ عظيم بإذن الله. وكان الشّيخ عبد الله عفيفي وقتها إمامًا بالقصر الملكي، وله علاقات طيبة بالمسئولين.

وذهب الشّيخ أبو العينين مع الشّيخ عفيفي إلى مدير الإذاعة "سعيد باشا لطفي" الذي حدّد له موعدًا للاختبار. وكانت اللّجنة مكوّنة من الشيخ مأمون الشناوي، والشيخ المغربي، والشيخ إبراهيم مصطفى عميد دار العلوم وقتها، والشيخ أحمد شربت، والإذاعي الأستاذ علي خليل، والأستاذ مصطفى رضا عميد معهد الموسيقى آنذاك؛ رحمهم الله جميعًا. يقول الشّيخ شعيشع: كنّا أكثر من قارئ، وكانت اللّجنة تجعل لكلّ قارئ خمسَ دقائق، وفوجئت بأنّني قرأت لأكثر من نصف ساعة دون إعطائي إشارة لأختم التلاوة، فكنت أنظرُ إلى وجوههم لأرى التّعبيرات عليها لأطمئنَ نفسي. وكان للإذاعة مديران؛ مدير إنجليزي والآخر مصري. ورأيتُ علامات الإعجاب على وجْه المدير الإنجليزي مستر فرجسون الذي جاء ليسمعني بناء على رغبة أحد المعْجبين بتلاوتي من المسئولين. وبعد عدّة أيام جاءني خطاب اعتمادي قارئًا بالإذاعة، وموعد أوّل قراءة لي على الهواء، وكنّا نقرأ ونؤذّن على الهواء. وبدأت شهرتي تعمّ الأقطار العربية والأجنبية عن طريق الإذاعة التي التحقت بها عام ١٩٣٩م".

-٣-

تدفّقت على الشّيخ دعواتٌ من الدول العربية الإسلامية لإحياء ليالي شهر رمضان بها، ووجّهت له دعوة من فلسطين ليكون قارئًا بإذاعة الشرق الأدنى، وكان مقرّها (يافا) لمدّة ٦ شهور، وكان يبدأ القراءةَ كلّ يوم في

افتتاح الإذاعة ويختتم إرسالها بالتّلاوة القرآنية، وكان ينتقل كلّ يوم جمعة من (يافا) إلى القدس ليتلو السّورة (قرآن الجمعة) بالمسجد الأقصى. ثمّ عاد الشّيخ إلى القاهرة ليقرأ القرآن مع نوابغ القراء كالشّيخ رفعت والشيخ محمد سلامة والشيخ علي محمود والشيخ مصطفى إسماعيل وغيرهم.

وعندما توفّيت الملكة (عالية) ملكة العراق، جاءته دعوةٌ عاجلة من السفير العراقي بالقاهرة لإحياء مأتمِ الملكة الرّاحلة بناءَ على رغبة من القصر الملكي العراقي، وبعد المأتم عَاد إلى مصر وقد حصل على وسام الرّافدين وبعض الهدايا التذكارية مع وداعٍ رسمي من جانب كبار المسئولين بالبلاط الملكي.

وبعدها سافر الشّيخ إلى سوريا واليمن والسعودية والمغرب وتونس وفلسطين والسودان.. ومعظم دول العالم، وقرأ بأكبر المساجد وأشهرِها في العالم، وفي مقدمتها: المسجد الحرام بمكّة، والأموي بسوريا، ومسجد المركز الإسلامي بلندن، فضلًا عن المسجد الأقصى كما سبقت الإشارة، وقد أسلم عددٌ غير قليل تأثرًا بتلاوته.

وكان للشيخ آراء ثاقبةٌ في تفسير ظاهرة ضعف القرّاء في الفترات الأخيرة، والعقم الذي أصاب مصر فلم تنجبْ قرّاء على مستوى قرّاء الزمن الماضي.. فقد أجاب مندوبَ الإذاعة البريطانية على سؤال حول عدم وجود أصوات مميزة في عالم التّلاوة، فقال: إنّها ظاهرة غريبة ومريبة،

وذكر أنّه مسح البلاد من أسوان إلى الإسكندرية بتكليفٍ من وزارة الأوقاف؛ بحثًا عن أصوات جديدة وواعدة، ولكنّه لم يعثرْ على صوت واحد يبشّر بالخير، وقد فسّر الشيخ هذا العقم من وجهة نظره بأن الأكلَ البلاستيك الذي يتعاطاه المصريّون منذ فترة وراء هذا العقم، لقد حُرم المصريّون من الأكل الطبيعي، وصاروا يتناولون أطعمة غير طبيعية ممّا أنتج أحبالًا صوتية فاسدة، وصار التّقليد هو العملة السائدة (السعدني، ألحان من السماء، ص٦٨ وما بعدها).

-٤-

وكان صوتُ الشّيخ نموذجًا للأصوات المميّزة التي تخاطب العاطفة والوجدان مباشرة، ولا شكّ أنّ اقترابه من الشيخ محمد رفعت جعله يتماهى مع الألفاظ والمعاني، وهو يتلو الآيات الكريمة، وقد ذكر الشيخ أشرف عبد المقصود أنه سأله عن سرّ تميّزه في القراءة، وتألّقه وإبداعه وخشوعه بما يخلع القلوب، خاصّة عندما قرأ من سورة آل عمران: {إنّ الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين}، في مسجد الحسين عام ١٩٥٩م، فأجابه بأنّه قبل القراءة يطالع تفسير الآيات التي سيتلوها، ليكون أقدرَ على تصوير الدلالات والمعاني، وهي إجابة غير مسبوقةٍ من قارئ من القرّاء المشاهير.

ومع أنّ الدولة لم تلتفت إلى الشّيخ يوم رحيله في الثالث والعشرين من يونيه ٢٠١١م، ولم تهتمّ بوفاة عَلَم من أعلام القراءة كما تهتمّ بوفاة بعض العناصر الهامشيّة من أهل الفنّ والرياضة وأشباههم، فقد كرمته الدول العربية والمؤسسات الإسلامية، ومنحته أوسمتَها وشهادات تقديرها ونياشينها اعترافًا بقدره ومكانته في حمل كلمة الله، وتاريخه الحافل في عالم التّلاوة.

فقد حصل على وسام الرّافدين من العراق، ووسام الأرز من لبنان، ووسام الاستحقاق من سوريا وفلسطين، وأوسمة من تركيا والصومال وباكستان والإمارات وبعض الدّول الإسلامية.. ووسام لا يقدّر ثمنه وهو أعظم الأوسمة، أعني وسام الحبّ من كلّ الناس.

لقد عيّن شعيشع قارئًا لمسجد عمر مكرم سنة ١٩٦٩، ثمّ لمسجد السيدة زينب منذ ١٩٩٢، وناضل الشّيخ في السّبعينيات لإنشاء نقابة القرّاء مع كبار القراء مثل الشيخ محمود علي البنا، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد، ثمّ انتخب نقيبًا لها سنة ١٩٨٨م.

وكان قد عيّن عضوًا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعميدًا للمعهد الدولي لتحفيظ القرآن الكريم، وعضوًا للجنة اختبار القراء بالإذاعة والتليفزيون، وعضوًا باللّجنة العليا للقرآن الكريم بوزارة الأوقاف، وعضوًا بلجنة عمارة المسجد بالقاهرة. وقد صدر قرارٌ رئاسي

أنْ يظلّ الشيخ أبو العينين شعيشع نقيبًا لمحفّظي وقراء القرآن الكريم مدى حياته مع إطلاق اسمه على أحدِ الشّوارع بالقاهرة وكفر الشيخ مسقط رأسه. وقد ظلّ في سنواته الأخيرة يشرف على تحفيظ القرآن للطلاب الصغار بأحد مساجد مدينة نصر تواضعًا لله وإخلاصًا للقرآن الكريم.

ولعلّ هذه الكلمات تكون تعبيرًا بسيطًا عن محبّة أحد المستمعين لقارئ فذ، وهبه الله نعمةَ التلاوة الفائقة التي تجذب القلوبَ والأسماع، فتضيف إلى حلاوة القرآن حلاوة الأداء والتّلاوة، رحمه الله.



عبدُ الحليم عويس..
والصحافةُ الإسلامية

- ١ -

في عام ١٩٧١م، عرّفني الأستاذ أنور الجندي- رحمه الله-على مجلة "الاعتصام"، بعد أن قدّم لها مقالًا لي نشرتْه في صدر صفحاتها. كنت أيّامها مشغولًا بالكتابات الأدبيّة، ومع بداية حكم الرّئيس السادات وفتح نوافذ محدودة للتعبير عن الشأن العام، ازداد اهتمامي بالقضايا التي يعيشها الوطن، وعلى رأسها قضيّة الحرية.

في الاعتصام، عرفتُ عبد الحليم عويس- رحمه الله- كنّا متقاربين في السنّ والمنشأ، فقد ولد عام ١٩٤٣ بقرية سندسيس بالمحلة الكبرى، وهي بيئة ريفيّة تمامًا، مع أنّ بها أكبر مصانع النسيج في العالم، وقد ولدت بعدَه بثلاث سنوات في البيئة الريفية ذاتِها بمحافظة أخرى، وقد تخرّجنا معًا في كلية عريقة هي دار العلوم، وكان في فترةِ دراسته بدار العلوم قد التحقَ بجريدة الأهرام للعمل مصحّحًا ومراجعًا، فاكتسب خبرةً ملحوظة بالعمل الصّحفي، ولعلّ ذلك كان من مسوّغات عضويته بنقابة الصّحفيين. واتّخذ مساره في الدّراسات العليا نحو التاريخ الإسلامي، أمّا أنا فقد اتّجهت إلى

النقد الأدبي، وكان- رحمه الله- يحذّرني أنّ بعض القوم لن يرحبوا بي لأنّ توجّههم مخالف، وأنّ الفرصة أمامي أفضلُ للدّراسة في التاريخ والشريعة والفلسفة والنّحو وغيرها من مواد التفوّق. ولكنّي أصررت أن أواصل في مجال النقد والبلاغة والأدب المقارن، وأذكر أنّي قلت له إنّني لن أهرب من المواجهة، ويجب على أمثالي أنْ يقتحموا كلّ المجالات، وأنْ يصبروا على المتاعب، وأنْ يضحّوا، فمِن الخطأ ترك المجال للمخالفين وحدهم.

تحقّق ما توقّعه عبد الحليم، وعانيت بعضَ المصاعب، ولكنّها على كلّ حال لم تكن قاتلة، فقد وجدت هناك مَن يتعاطف معي، حتّى في مراحل الترقي التي تولّاها نفرٌ من اليساريّين من خارج دار العلوم، كان بعضُ المحبّين يساندونني في مواجهة تعسّفٍ لا مسوغَ له وكراهية غير مفهومة، وانتصرت بفضل الله، وأنجزتُ إنتاجًا لا بأسَ به في مجال التخصّص الذي يهرب منه كثيرون بسبب صعوبته.

في "الاعتصام"، كان مسارُ الاهتمام بالشأن العام يتبلور، وقد تحوّلت المجلة من هيكلٍ متواضع يهتمّ بالنّقل عن التراث ومعالجة بعض القضايا العامة الهامشية في حدود المتاح آنئذ من حرية تعبير؛ إلى مجلة حديثة الشّكل حيّة الموضوعات تناقش القضايا العامّة بجرأة غير مسبوقة، وكانت تمثّل المعارضة الحية الحقيقية الوحيدة، حتّى انضمّت إليها مجلة "الدعوة" التي كان يصدرها الإخوان المسلمون.

كانت الاعتصام من قبلُ توزّع أمام المساجد وفي فروع الجمعية الشرعية، ولكنّها بعد التّطوير صارت توزّع مع الصّحف السيارة عبر مؤسسات التوزيع الصحفي الكبرى مثل الأهرام والأخبار، وارتفع توزيعها من أعداد محدودة تطبعها مطابع الجمع اليدوي إلى توزيع عشرات الآلاف التي تطبعها المطابع الآلية في مطابع الأهرام التّجارية على كورنيش النيل، ولأوّل مرّة بدأت القوى السياسية- وخاصّة ما يطلق عليهم المثقّفون- يتابعونها ويعلّقون عليها، ويتّسع نطاق توزيعها في الخارج من الخليج إلى المحيط، وكلّ ذلك بفضل الله أوّلًا، ثمّ إمكانات محدودة ونفرٍ قليل من المحرّرين يضمّ الحاج حسن عاشور والدكتور محمد عاشور ووالدهما الشيخ أحمد عيسى عاشور والشيخ محمود عبد الوهاب فايد والأستاذ محمد عبد الله السمان والأستاذ أنور الجندي والأستاذ محمد عطية خميس والشيخ عز الدين فريد وعبد الحليم عويس؛ رحمهم الله جميعًا. وكان كاتبُ هذه السّطور واحدًا ممّن يشاركون بجهدهم المتواضع في التحرير، والرّد على رسائل القراء بطريقة مبتكرة تركز على طرح القضايا التي يثيرها القرّاء وإدارة الحوار حولها، وانتخاب الكتابات المبشرة بكتّاب جدد، وقد صار بعضهم كاتبًا مرموقًا فيما بعد، ومن بينهم الشيخ الدكتور محمد المسيّر رحمه الله، والدكتور إبراهيم البيومي غانم، بالإضافة لإعدادي الموضوعات للنّشر فيما يُعرَف بالدّيسك.

تركنا عبد الحليم، وذهب للعمل بالخارج، وحين عادَ لبعض الوقت، ورأى باب البريد بصورته الجديدة؛ ضحك وقال: هذا بابي. قلت له: تفضّل. ولكنّه ما لبث أن غادرنا إلى السّعودية للعمل هناك بعد حصوله على الدّكتوراه في موضوع "ابن حزم الأندلسي مؤرّخًا" عام ١٩٧٨، وكان قد حصلَ على الماجستير قبلها في موضوع "دولة بني حماد في الجزائر" عام ١٩٧٣م، وقد استمرّ في السعودية فترة طالت إلى سبعة عشر عامًا، عمل فيها بجامعةِ الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، وكان مقرّبًا من مديرها الدكتور عبد الله التركي؛ ممّا مكّنه من الإسهام بجهد كبير في خدمة كثير من قضايا الإسلام والمسلمين عبر المؤتمرات والندوات والكتابة في الصحف والمجلات المحلية هناك.

-٢-

في أواسط السبعينيّات من القرن الماضي، أعيد إصدار مجلة "الدّعوة" الناطقة باسم الإخوان المسلمين، وقد شاركت فيها بالكتابة، وكان عبد الحليم يتردّد على القاهرة كثيرًا قادمًا من الرياض أو في طريقه إلى بعض العواصم للمشاركة في مؤتمر أو ندوة، وقد أتاح له ذلك فرصةَ المشاركة بالكتابة في الدّعوة المصرية، وقد كانت إمكاناتها الماديّة أفضل من إمكانات الاعتصام، بالإضافة إلى وجود هيئة تحرير معيّنة ومستقرّة، فحقّقت فرصة الانتظام في الصدور أول كلّ شهر عربي، وانتشارًا ملحوظًا أزعج

السّلطات، فقد شكلت مع الاعتصام رأس حربة للدفاع عن الشريعة والدّعوة إلى تطبيقها، ورفض مبادرة السادات واتفاقيات كامب ديفيد بالإضافة إلى تناول قضايا المجتمع، وتبنّي حقوق الناس والدعوة الإسلامية بطريقة مباشرة.

أمّا في مجلة "الدّعوة" السعودية، فقد وجد عبد الحليم فرصةً مواصلة دوره الصحفي والكتابة عن القضايا الإسلامية المعاصرة في أثناء وجوده بالمملكة. وقد أسّس "الدّعوة" في الرياض الشيخ عبد الله بن إدريس، وهو من أبرز أعلام الأدب العربي الحديث في السعودية، كتب الشعر والنقد والدراسة الأدبية- وكان هواه مصريًّا- بالإضافة إلى القضايا العامّة، وفي مقدمتها قضايا الإسلام، وكان مقرّ المجلة آنئذ في منطقة الثميرى آخر شارع الوزير بمدينة الرياض، وقد صدرت على هيئة صحيفة أسبوعيّة أوّلًا، ثمّ تحوّلت إلى مجلة، وتولّى بعده الشيخ سعد الفريان ثمّ الأستاذ عبد العزيز العيسى الذي مازال مستمرًّا حتى الآن، وقد تنقّلتْ في أكثر من مكان بعد الثميري، حتى استقرّت في مقرّ فخم شمال الرياض.

كان عبدُ الحليم يذهب إلى عمله في جامعة الإمام صباحًا، ثمّ يواظب على الدوام في الدّعوة مساء، يساعد في تحريرها، ويكتب فيها مقالاته ما بين تناول موضوعات تاريخيّة تنتمي إلى مجال تخصّصه، وأخرى تتناول القضايا العامّة الراهنة، وقد انضمّ إلي هيئة تحرير المجلة في تلك الفترة صديقُنا

الراحل الدكتور محمد جاد البنا، الذي كان مُعارًا إلى وزارة المعارف، ثمّ انتقل إلى الدعوة، وكان- رحمه الله- دمثَ الخلق، ودودًا، دعاني للكتابة في المجلة عندما ذهبت في إعارة للعمل بالتعليم العام أواخر السبعينيّات وأوائل الثمانينيّات، وقد سافرت لزيارة الرياض من منطقة جيزان لزيارة الدعوة، ولكنّي لم أتمكّن من لقاء عبد الحليم فقد توسّعت مهامّه آنئذ، وكثرت مشاركاتُه في المؤتمرات الخارجية وارتباطاته مع الدكتور عبد الله التركي الذي كان بدوْره محورًا مهمًّا من محاور الحركة الإسلامية التي تتبنّاها المملكة العربية السّعودية مع دول العالم في فتح آفاق الدعوة والمراكز الثقافية والتعليمية الإسلامية.

بالإضافة إلى ذلك كانت لعبد الحليم مشاركات واضحة في المجلات الأكاديمية التي كانت تنشرُها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وأيضًا سلاسل الكتب التي كانت تصدر عنها بالتّحرير والتأليف. وقد ترأس تحرير مجلة كلية العلوم الاجتماعية، التي كانت تصدرها الجامعة، ويبدو أنّ الإدارة الجامعية وجدت فيه ضالّتها ففرّغته بصورةٍ شبه كاملة للعمل التحريري والتأليف.

وقد كتب عبد الحليم في معظم الدوريات الإسلامية التي كانت تصدر في العالم العربي والإسلامي، كما شارك بالكتابة في مجلة الأدب الإسلامي الفصلية، وأذكر بالمناسبة أنّه بذل جهدًا كبيرًا في إنشاء فرع رابطة الأدب

الإسلامي بالقاهرة الذي ظهرَ تحت اسم جمعية الأدب الإسلامي بالقاهرة، وكان لعلاقته بقيادات الأزهر دور كبير في تحقيق هذه الغاية.

***

ولا ريب أنّ الصحافة وسيلةٌ مهمّة من وسائل الخطاب الأكثر انتشارًا وتأثيرًا، وفي هذا السّياق فقد بذل عبد الحليم جهودًا كبيرة، وحقّق من خلال الصحافة فوائد عديدة في مجال التّعريف بالإسلام والدفاع عنه، وردّ كثيرًا من الشبهات التي لحقت بالإسلام أو التاريخ الإسلامي. ويلاحظ أنّه كان يحرص أن يفيد قي مقالاته من كتب غير المسلمين لإثبات الوقائع التاريخية التي يربطها بالواقع المعاصر، ويمكن أن نأخذ مثالًا في هذا المجال فيما كتبه ليكشفَ زيف اتهام المسلمين بالإرهاب والعنف، وقد اتّخذ من احتلال الصليبيّين للقدس دليلًا على الفارق بين المسلمين وسلوكهم الحضاري الذي تمثّل في مواقف صلاح الدين الأيوبي، والصليبيين وسلوكهم المشين انطلاقًا من رؤيته لضرورة أنّ المقارنات التاريخية بين سلوك المسلمين وسلوك النّصارى عبر التاريخ مطلوبةٌ الآن جدًّا؛ لا لنثبت أنّنا الأرحم والأرقى والأكثر تسامحًا واحترامًا لحقوق الإنسان فحسب؛ بل ليعرف إخوانُنا في عالم النصرانية أنهم عندَ الحساب الصّحيح- بعيدًا عن التضليل الإعلامي وتزييف التاريخ- سيخسرون كثيرًا، وأنّهم- أكثر من غيرهم- همُ الذين ضاقت صدورهم بالآخرين، ورفضوا الاعتراف

بحقوق الإنسان، وبقيم التسامح والرحمة، وبالتّالي- وهو الأهمّ- يعودون إلى الحوار بدل الصدام، ويفتحون صفحة جديدة مع المسلمين والإنسانية كلها. وليراجعوا سلوكهم معنا ومع غيرنا مثل الهنود الحمر في أمريكا، ومع بعضهم البعض من خلال ما يسمَّى بحروب المذاهب المسيحية، وما تولّد عنها من محاكم التّفتيش، ورمْي كلّ طائفة بالهرطقة واستباحة إبادتها بأرقى الطرق الوحشية.

وقد يلجأ في ثنايا مقالتِه إلى السّخرية ليتفاعل معه القارئ، ويتابع براهينه وأدلته كما نرى في حديثه عن يوم المأتم ودموية الصليبيّين:

"كان يوم الجمعة الموافق ١٥ يونيه من سنة ١٠٩٩م (٤٩٢هـ)، يومًا من الأيام السّوداء في تاريخ القدس. كان يوم المأتم بحقٍّ، أو بتعبيرنا المصري القديم يوم (الجنائز الجماعية). إنّه اليوم الذي كان كلّ شيء قبله قد انتهى..

فلعدّة أيام سابقة كانت جيوش الصليبيّين (الباسلة) التي كانت امتدادًا لما عرف بحملة الأمراء [لاحظ "الأمراء" فكيف لو كانوا غوغاء؟!]، قد اقتحمت أسوار القدس، ودخلتها وقتلتْ معظم مَن فيها مِن السّكان، لدرجة أنهم في ساحة المسجد الأقصى قتلوا أكثر من سبعين ألفًا (كما يذكر المؤرّخ المسلم ابن الأثير)!! وذلك في يوم الجمعة ١٥ يونيه ١٠٩٩م (٤٩٢هـ).

لكن ربّما كان (ابن الأثير)- المسلم- مبالغًا، فلنترك الحديثَ للمؤرخ الصليبي (وليم الصوري).. يقول وليم:

"لقد اندفعوا- أي جيوش الصليبيّين- خلال شوارع المدينة مستلّين سيوفهم، وقتلوا جميعَ مَن صادفوا من الأعداء، بصرف النّظر عن العمر أو الحالة ودون تمييز... وقد انتشرت المذابحُ المخيفة في كلّ مكان، وتكدّست الرءوس المقطوعة في كلّ ناحية، بحيث تعذَّر الانتقال إلّا على جثث المقتولين"(!!!).

ويقول وليم:

"وكان القادة- أي الأمراء!!- قد شقّوا في وقت سابق طريقًا لهم، وأحدثوا عندما تقدّموا قتلاً لا يوصف... وتبع موكبَهم حشدٌ من الناس؛ متعطّش للدماء، ومصمِّم على الإبادة".

[طبعًا لا بدّ أن يكون الغوغاء على دين أمرائهم!!]

ويقول (وليم)-لا فُضَّ فوه، حاكيًا المزيد من الأمجاد الأوروبيّة المتأمركة حديثًا-:

"لقد كانت المجزرةُ التي ارتكبت في كلّ مكان من المدينة مخيفة جدًّا، وكان سفك الدّماء رهيبًا جدًّا، لدرجة عانى فيها حتّى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز" (!!).

ويقول: "وعَلِمَ القادة الآخرون بعد أن كانوا قد قتلوا مَن واجهوا في الأجزاء المختلفة مِن المدينة، أنّ الكثير قد هربوا للالتجاء في الأروقة المقدسة للهيكل؛ ولذلك اندفعوا بالإجماع إلى هناك، ودخلت مجموعة كبيرة من الفرسان والرَّجَّالة قتلتْ جميع الذين كانوا قد التجئوا إلى هناك، ولم تظهر أيّ شفقة لأي واحد منهم، وغمر المكان كله بدم الضّحايا".

ويكمل (وليم الصوري) الملحمة، قائلًا: "وطاف بقيّةُ الجنود خلال المدينة بحثًا عن التّعساء الباقين على قيد الحياة، والذين يمكن أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيِّقة وطرق فرعية للنّجاة من الموت، وسُحب هؤلاء على مرأى الجميع وذُبحوا كالأغنام، وتشكّل البعض في زُمَر، واقتحموا المنازل، حتّى قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم، وجميع أسرهم وقُتلت هذه الضحايا، أو قُذفت من مكان مرتفع حيث هلكتْ بشكل مأساويٍّ، وادَّعى كلّ واحد من المغيرين ملكية دائمة للمنزل الذي كان قد اقتحمه، وذلك إضافةً إلى تملُّك كلّ ما كان موجودًا فيه"(!!!).

ويواصل عبد الحليم مقالته على هذا المنوال، ويستشهد بمؤرخ أجنبي آخر هو أنتوني برج، ويستعرض مواقف القوى الإسلامية آنئذ، ويستخلص دروسَ المقارنة التي تفيد المسلمين المعاصرين، وخاصّة بعد تحرير القدس، وخاصّة مواقف صلاح الدين الإنسانية المناقضة لمواقف الصليبيّين المتوحشة!!

- ٣ -

استطاع عبد الحليم أن يوظّف دراسته في الأزهر ودار العلوم للكتابة الصحفية، فقد ساعدته دراسته الأزهرية على أن يقدّم في جريدة "الشرق الأوسط" ما سمّاه بالملفّ الفقهي على حلقات منتظمة، تمّ جمعُها فيما بعد في مجلدات (١٣ مجلدًا) تتناول قضايا الفقه الإسلامي بأسلوبٍ سهل ميسّر يضمّ ما يتعلق بالعبادات والمعاملات والأحوال الشّخصية وفقًا للمذاهب الفقهية المشهورة.

أمّا دراسته في دار العلوم فقد جعلته يهتمّ بالتاريخ الإسلامي عمومًا، وخاصّة فترة التّاريخ الوسيط التي اقتربت من تخصّصه الدقيق، ويقدّم مجموعة كبيرة من المقالات ذات الصّبغة التاريخية التي تفيد المعاصرين من خلال الدروس والعبر المستخلصة، ومن هذه المقالات:

إمبابة والقرامطة، وتربط بين أحداث إمبابة وأفعال الخوارج والقرامطة، وأهداف مثيري فتنة إمبابة- وسقط ملوك الطوائف! ويتناول أهم أسباب سقوط الأندلس- هوامش على دفتر النصر والتغيير، ويقدم بعض الدّروس والدلالات من وحي ثورة مصر ٢٠١١- الوثيقة العمريّة في فتح بيت المقدس، وسرّ ذيوعها وانتشارها- طارق بن زياد فاتح الأندلس، ويشرح كيف أسلم على يد موسى بن نصير وحسن إسلامه، وكيف تمّ له فتح الأندلس وتفاصيل المعارك التي خاضها- نور الدين.. بطل موقعة حارم الرمضانية،

ويتناول كيف انتصرَ نور الدين محمود على الصليبيين في موقعة حارم سنة ٥٥٩، مع إشارة إلى نشأته وحبّه للعلماء وزهده وجهاده- محمد الفاتح فاتح القسطنطينية، ويوضّح كيف استطاع محمد الفاتح السلطان العثماني أحد أكبر قادة الدّولة العثمانية فتح القسطنطينية، بعد أن أخذ بالأسباب المؤدّية إلى النصر- أسباب سقوط الدّولة الأموية، ويأتي على رأسها قيام الدولة على التوريث منذ نشأتها- مِن عوامل سقوط العباسيين، وأخطر العوامل التي أسقطت خلافة العباسيين هو إهمالهم للجهاد- المسجد الأقصى ودرس السيرة النبوية، ويوضّح أنّ النبي- صلّى الله عليه وسلم- لم يفرّط قيد شبر في أيّ من مبادئ وقيم الإسلام، ومن هنا لا يجوز التّفريط في المسجد الأقصى- وطوى اليهود آخرَ صفحاتنا المشرقة!!، ويكشف كيف كان رفض السّلطان العظيم عبد الحميد تهويد فلسطين لطمةً لم ينسَ اليهود أن يردوها للخلافة ردًّا سخيًّا.

وقد كانت مقالاتُه الإسلامية والتاريخية أساسًا لكثير من كتبه التي ظهرت تباعًا، سواء من خلال دار النّشر التي أنشأها في القاهرة وسمّاها دار الصحوة الإسلامية، أو من خلال دور النّشر الأخرى التي تعامل معها، ومن هذه الكتب التي قاربت السّبعين:

"بنو أميّة بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلي"، و"التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون"، و"دحض لمحاولات ماركسة أو علمنة

أفكار ابن خلدون"، و"المدخل إلى الحضارة الإسلامية"، و"قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ"، و"الفكر اليهودي بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات"، و"صفحات من جهود المسلمين في الحضارة الهندية"، و"التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس"، و"٤٠ سببًا لسقوط الأندلس"، و"الأزمة الحضارية الراهنة ودرس الأندلس"، و"العصبية القومية وأثرها في سقوط الأندلس"، و"شخصية الرسول أمام المقاييس الإنسانية"، و"بيت المقدس في ضوء الحق والتاريخ"، و"دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية"، و"ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة"، و"العقل المسلم في مرحلة الغزو الفكري"، و"صور وبطولات من حضارتنا"، و"في ظلال الرسول"، و"الشيخ محمد الغزالي: تاريخه، وجهوده، وآراؤه"، و"المسلمون في معركة البقاء"، و"الدولة الحديثة في المحيط الإسلامي بين الحقيقة والتزييف"، و"الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل"، و"كتابات على بوابة المستقبل الإسلامي"، و"ثوابت ضرورية في فقه الصحوة الإسلامية"، و"بديع الزمان سعيد النورسي: رجل الإيمان والتجديد في مواجهة الإلحاد والتقليد"، و"عقيدتنا الإسلامية"، و"أخلاق المسلم"، و"مواقف إسلامية رائعة"، و"سيرة الرسول"، و"علي بن أبي طالب الخليفة المفترى عليه"، و"المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين"، و"رجل القرآن وصناعة الإنسان (دراسة عن بديع الزّمان النورسي)"، و"الغارة المعاصرة على المسلمين..

منطلقاتها وغاياتها"، و"الوحي والعقل والعدل في ميزان الإسلام"، و"الفكر السياسي بين ابن حزم وأبي حامد الغزالي"، و"قاموس كلمات القرآن للأطفال"، و"دعاة لكن أدباء"، و"مشكلة التقدّم بين السنن الكونية والسنن القرآنية"، و"المجرمون المائة.. أولهم قابيل وآخرهم مبارك".

- ٤ -

كانت هناك محاولةٌ في أوائل الثمانينيّات- فيما أذكر- لإنشاء مجلة للأطفال تنطلق من التصوّر الإسلامي، وتتجاوز السّلبيات التي تنشرها مجلات الأطفال العربية نقلًا عن الغرب والتصوّرات الغربية، على أن يقوم عبد الحليم بمشاركتي في تحريرها، وأذكر أنّنا سمّيناها الأشبال، لتصدر عن دار الاعتصام، وقد تمّ إعداد الماكيت (التصميم) الخاصّ بها بعد الاتفاق مع الرّسامين والفنيّين، وأصدرنا العدد التجريبي بالفعل، ولكن يبدو أنّ الإمكانات المالية وصعوبة التّرخيص كانتا من وراء تأجيل المشروع، ثمّ نسيانه بفعل تلاحق الأحداث والتطورات التي انتهت بإغلاق مجلة الاعتصام ذاتها، وحرب الخليج الأولى وحرب الخليج الثانية، وأحداث الجزائر والبوسنة والهرسك وغيرها من أمور شغلتْ أطراف المشروع أو أثرت عليهم بطريقة وأخرى. ولم يتحقّق مشروع المجلة الإسلامية للأطفال، وإن كانت هناك مشروعات متواضعة تمّ تنفيذها بوساطة آخرين على استحياء بسبب ضعف الإمكانات بصورة عامّة.

عقب إغلاق الاعتصام، وحصار دار النشر اقتصاديًّا من خلال الضرائب والديون، ومرض الحاج حسن عاشور الذي كان يدير الدار؛ ظهرت فكرة إنشاء مجلة إسلامية جديدة تصدر عن الجمعية الشرعية، وبالفعل أخذ الحاج حسن وهو مريض في سنواته الأخيرة يؤسّس لإصدار كتاب غير دوري على هيئة مجلة باسم "التبيان" يتولّى تحريره بنفسه على غرار الاعتصام، واستطاعت الجمعية الشرعية أن تحصل بعد عناءٍ شديد على التّرخيص وموافقة جهات الأمن، وصدرت التبيان مجلة شهرية، وتولّى رئاسة تحريرها عبد الحليم عويس بحكم أنّه عضوٌ بنقابة الصحفيين، وهي العضويّة التي حصل عليها من قبلُ بحكم عمله في الأهرام مصحّحًا ومراجعًا، وعمله في الاعتصام محرّرًا وكاتبًا، وظلّ رئيسًا لتحريرها حوالي ثلاث سنوات، حتّى وافته المنيّة ليلة العاشر من ديسمبر ٢٠١١، رحمه الله.



محمّد جاد البنا..

مِن المدافعين عن الإسلامِ في هدوء

-١-

لم أكنْ أتصوّر أنّني سأرثي صديقي وأخي "محمد جاد البنا" إلى الناس.. ذلك أنّها مهمّة ثقيلة وقاسية وصعبة، وخاصّة إذا كان المعنيّ بالأمر جزءًا من نسيج روحي وعاطفتي وفكري؛ يصعب فكّ الارتباط به أو الانتماء إليه.

إنّ إيماننا بقدرِ الله راسخٌ لا يتزعزع، ولكنّ النّفس البشرية تهتزّ لما يصيب الوجدان من فُرقةٍ تأتي على غير توقّع، ورحيلٍ يأتي على غير انتظار.. ولعلّ لله في ذلك حكمة، وهي تذكيرُ عباده بأنّ الموت يأتي في كلّ أوانٍ ودونَ سابق إنذار، ليتعظَ الغافلون، ويتنبّه الغائبون، ويستيقظ النائمون.

ولا أظنّ أنّني في هذه العُجالة أستطيع أنْ أفي بهذا التّعبير بحقّ صديقي وأخي "محمد جاد البنا"؛ فمنذ عرفته قبل فترة طويلة، ونحن نصدر عن موردٍ واحد، وتصوّر واحد، ومنهج واحد؛ هو الإسلامُ بآفاقه العريضة الممتدّة عبر الزمان والمكان، وأبعاده العميقة في القلب والوجدان.

كان تعارُفنا في البداية على صفحات الصّحف والدوريات والكتب، وكان له فضل البدءِ بالكتابة إليّ، والتقينا على المورد والتصوّر والمنهج،

وتوطّدت أواصر المعرفة والمودّة التي تحوّلت إلى نسيجٍ روحي وعاطفي وفكري يصعب فكّ الارتباط به أو الانتماء إليه كما قلتً من قبل.

-٢-

ولدَ "محمد جاد البنا" في قرية "كفر دميرة القديم" مركز طلخا محافظة الدقهلية عام ١٩٣٩م، وتعلّم في الأزهر الشّريف حتّى نال درجة الشهادة العالية، وواصل دراساته العليا فحصل على الماجستير والدكتوراه.. وفي خلال هذه الرّحلة العلمية عمل مدرسًا بمعهد جرجا الدّيني الأزهري، ومنه انتقل إلى معهد المنصورة الديني الأزهري، وفي أثناء عمله في المنصورة أعيرَ إلى وزارة المعارف السعودية ومنها إلى مؤسّسة "الدعوة" الصّحفية بالرياض حيث عمل بمجلة الدعوة، وعاد إلى مصر ليعمل أستاذًا بكلية البنات الإسلامية التابعة لجامعة الأزهر (فرع المنصورة)، وظلّ بها حتّى اختاره الله إلى جواره صباحَ الاثنين الثالث والعشرين من شوال ١٤١٤هـ الموافق الرابع من أبريل ١٩٩٤.. وانتهت حياةُ رجل عاش من أجل الفكرة الإسلامية بعيدًا عن الضّجيج والأضواء، حريصًا على أن تكون كلمته خالصة لوجه الله.

***

كان مولدُ "محمد جاد البنا" في قرية "كفر دميرة القديم" مناسبةً ذات دلالة، ففي هذه القرية ولدَ ودفنَ واحدٌ من أشهر أدباء العربيّة ومفكّريها في العصر الحديث، أعني "أحمد حسن الزيات" صاحب "الرسالة"

أشهرِ المجلات الأدبية قاطبة في القرن العشرين، وأكثرها تأثيرًا في حياتنا الفكريّة والثقافية، ومازالت حتى اليوم مرجعًا للباحثين، ومصدرًا للدّارسين، وعلى صفحاتها كتب أشهر الأدباء والمثقفين في طول العالم الإسلامي وعرضه، بدءًا من الهند حتّى موريتانيا، وكانت في كلّ الأحوال تقود تيار الفكر الأصيل المستنير (بالمعنى الحقيقي للاستنارة الذي يتناقض مع المعنى المزيّف الذي يروّجه العلمانيون وأشياعهم).

وكان طبيعيًّا أن يتعلّق "البنا" بالزّيات، ويكتب في "الرسالة" حين أصدرتها وزارة الثّقافة والإرشاد القومي عام ١٩٦٣م، وأن يواصل رحلته الثقافية من خلال القراءة والاطّلاع، ويرتبط أكثرَ بالزيات وأقرانه المشاهير من أمثال العقاد والرافعي وزكي مبارك، ويوطّد علاقته بالتراث، ويتابع ما يكتبه المثقفون والأدباء من دراسات معاصرة في مختلف نواحي المعرفة، ويتأهّل بعد ذلك ليكون قلمًا مسلمًا يملك رؤية شاملةً يصوغها التصوّر الإسلامي والمعرفة الأصيلة الواعية بقيم الماضي المضيء وضرورات المستقبل المأمول.

-٣-

وعبر الصّحف والدوريات أخذتْ مقالات البنا تترى حاملةً نبض الأمة وأشواقها، ولعلّ أكثر الصحف والدوريات التي ظهر إنتاجُه على صفحاتها: مجلة الدعوة، وجريدة الجزيرة، ومجلة المجلة العربية، ومجلة الخفجي، ومجلة الهلال، وجريدة الأهرام، ومجلة الثقافة قبل احتجابها، ومجلة المنصورة؛ فضلًا عن المجلات الأكاديمية التي تنشر البحوث المتخصّصة.

وكان- يرحمه الله- صادقًا في كلّ كلمة يكتبها، بعيدًا عن اللغو والإنشاء والفضول، وكانت موضوعاته الاجتماعية والإسلامية على صفحات "الجزيرة" خاصّة، تحمل همومَ الناس، وتنوء بأثقالهم، وتشقى بأحزانهم، وتبتهج لمسرّاتهم، وقد ظلّ يتابع الكتابة الاجتماعية والإسلامية في الصّحف إلى ما قبل أعوام قليلة من رحيله، حيث بدأ الإرهاق يضيق عليه الفرص الملائمة للكتابة الأسبوعية، فضلًا عن الالتزامات الجامعية التي تقتضي تفرّغًا كاملًا، فتوقّف عن الكتابة الصحفية.

***

وقد أسهم البنا في المجالِ الأدبي من خلال التصوّر الإسلامي للأدب، وأصدر مجموعتيْن قصصيّتين، أهمّهما مجموعة "الفستان والرصاص" وقد تميّزت قصصها بالواقعية الإسلامية ومعالجة القضايا الراهنة في إطار فني محكم، وأسلوب أدبي رفيع.

وقد كان- يرحمه الله- عضوًا برابطة الأدب الإسلامية العالمية، ومن المؤازرين لها، والدّاعين لفكرة الأدب الإسلامي. وقد وظّف اتجاهه الأدبي الإسلامي في مجال دراسته الأكاديمية، فكانت رسالتُه للدكتوراه حول السيرة النبوية في القصص التّاريخي، وأصّل بذلك لجانبٍ مهمّ من جوانب الأدب الإسلامي، عكف على استجلائه وتمحيصه ودراسته دراسةً أدبية ونقدية فاحصة.

وفي بحثه للماجستير قبل ذلك انشغلَ بالمعارك الأدبية لزكي مبارك وتأثيرها في أدبنا الحديث، فدرسها دراسةً موضوعية منصفة، أعطت للرّجل حقّه، ولخصومه أيضًا حقّهم، من خلال وعي ناضجٍ بطبيعة القضايا موضوع الحوار أو المعارك.

ونتيجةً لتأثره بالزّيات صاحب "الرسالة"؛ فقد أعدّ عنه بحثين جيّدين، درس فيهما إنتاجَه الأدبي، وتأثيرَه الثقافي، ونشر أحدَهما في كتاب ظهرت طبعته قبل أعوام في الاحتفال الرّسمي بذكرى الزّيات بمدينة المنصورة، وكان قبل وفاته يعدّ الثاني للنشر، ولعلّه يرى النور قريبًا.

وقد أضاف إلى اهتماماته مجالًا آخر من المجالات الأدبية المؤثّرة، أعني مجال أدب الطّفل، فكتب مجموعةً من القصص التّاريخية للأطفال، ذات الدلالة الحضارية المهمّة، ونشر منها كتابيْن: الأوّل بعنوان "ثمّ جاءته الشّهادة" والثاني بعنوان "ومن اليرموك درس آخر".

لقد عاش محمد جاد البنا كريماً على نفسه، فلم يبتذلها في مواضع التزلف أو النفاق أو التدنّي، وكانت حياته في تفاصيلها الصّغيرة مثالًا للإنسان المسلم المكافح.

رحم الله محمد جاد البنا، وأنزله منازلَ الأبرار والصّالحين، وعوض أهله وعارفيه والأمّة عنه وعن قلمه خيرَ العوض.

محمّد قطب
والذّهابُ إلى اللّه

-١-

كنّا في اسطنبول عام ١٩٩٣م لحضور مؤتمرٍ أدبي، ورأيتُه على المنصة يلقي كلمة ضافية حول مفهومه للأدب الإسلامي. لم يتحْ لي يومها أن أتكلّم معه أو أشافهه، فهمتُ أنّه يقيم مع بعض ذويه فترةً من الصيف في المدينة العريقة، وقد جاء ليلقي كلمتَه ويمضي إليهم لضرورة ما. يومَها، عدت بذهني إلى الوراء ما يقربُ من ثلاثين عامًا، وقبيل محنةِ آل قطب التي شهدتْ عام ١٩٦٦م إعدامَ الشّقيق الأكبر وموتَ ابن الشقيقة الكبرى تعذيبًا في معتقلات النّظام الناصري الفاشي، وسجن الشقيق الوحيد والشقيقتيْن الأخريين. في ذلك الحين، كنت طالبًا في دار المعلمين، وطلب منّي المدرّس الأوّل للتربية الفنية أن أعدّ محاضرة عن كتاب الفنّ الإسلامي لمحمد قطب لألقيها على الطلاب والأساتذة والضّيوف الذين سيشرّفون الدّار في حفل افتتاح المعرض الفني الذي يقام لثاني مرّة، ويمثّل حدثًا مهمًّا في المدينة الرّيفية وفي مدارس المحافظة كلها، ويقوم على تحويل خامات البيئة إلى هياكل فنية من خلال اللوحات والصور والتشكيلات المتنوعة.

كان الأمرُ بالنسبة لي يمثّل معضلة كبرى.. كيف أستطيعُ وأنا الطّالب البسيط أن أواجهَ الجموع الغفيرة التي ستملأ مدرّجًا كبيرًا، ومنهم ضيوف ليسوا من الدار، يترقّبون ما يُقال على المنصة، وبالتّأكيد فهُم لن يتسامحوا مع خطأ هنا أو زلّة لسان هناك.. ثمّ مَن هو محمد قطب صاحب الكتاب!؟ فأنا لا أعرفه، وقد أكون عرفت شيئًا عن شقيقه سيّد الأكثر شهرةً من خلال كتاب قرأته هنا أو مقال طالعته هناك.

عكفتُ على قراءة الكتاب، وأشّرت على بعض الصفحات، وحاولت أنْ أقرأ في بعض الكتب والمجلّات عمّا يعنيه الفنّ الإسلامي، الرّيشة وليس الكلمة، فقد كانت دراستُنا النّظرية آنئذ تدورُ في الغالب حول الفنّ الإسلامي المتعلق بالتشكيلات الخطيّة والمعمارية والزّخرفية، واكتشفت في كتاب محمّد قطب حديثًا آخر عن الإسلام والكلمة من حيث هي تشكيلٌ فنيّ جميل يحمل مضمونًا إنسانيًّا إسلاميًّا.

كان عنوان الكتاب "منهج الفنّ الإسلامي" يحمل بالنسبة لي كلمةً غامضة وهي كلمة منهج، فأنا في ذلك الحين أفهمُها بمعنى "مقرّر"، أي الموضوعات التي ندرسها نحن الطلّاب في كتاب ما، أو مادّة ما، وكان وجودُها في عنوان كتاب محمد قطب دافعًا للبحث عن دلالتها التي يقصدُها المؤلف.

كان محمد قطب يتساءل في مقدّمة الكتاب تساؤلًا يرتبط بنظرة الكتاب والنقاد المعاصرين للعلاقة بين الإسلام والفنّ.. هل للإسلام صلةٌ بالفنّ؟ وما علاقة الدين بالفنّ؟

إنْ كانت هناك علاقةٌ فهي علاقة النّفور والخصام، الأديان تبحث عن "الحقيقة"، والفنّ يبحث عن "الجمال".

الأديان تحرصُ على الأخلاق، والفنّ يكره القيود كلّها، بما فيها قيود الأخلاق.

لا بدّ إذًا أنّ الفنّ الإسلامي مجموعة من الحكَم والمواعظ والإرشادات!

ذلك فهمٌ ضيّق للدّين وللفنّ على السّواء.

إنّ الدّين يلتقي في حقيقةِ النفس بالفن، فكلاهما انطلاقٌ من عالم الضّرورة، وكلاهما شوقٌ مجنح لعالم الكمال، وكلاهما ثورةٌ على آليّة الحياة.

والفنّ الإسلامي ليس بالضّرورة هو الفنّ الذي يتحدّث عن الإسلام، وهو على وجه اليقينِ ليس الوعظ المباشر، والحثّ على اتّباع الفضائل، وليس هو كذلك حقائق العقيدة المجرّدة مبلورة في صورةٍ فلسفية، فليس هذا أو ذاك فنًّا على الإطلاق.

الفنّ هو الذي يرسم صورةَ الوجود من زاوية التصوّر الإسلامي لهذا الوجود.

هو التّعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان، من خلال تصوّر الإسلام للكون والحياة والإنسان.

هو الفنّ الذي يهيّئ اللّقاء الكامل بين "الجمال" و"الحقّ"، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحقّ هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمّة التي تلتقي عندها كلّ حقائق الوجود.

يشيرُ محمد قطب إلى نقطةٍ مهمّة وخطيرة، ولعلّ أحدًا لم يسبقه إليها، وهي إحساسه دائمًا أنّ العرب لم يستفيدوا من القرآن، ولا من الإسلام في إنتاجهم الفني، وخاصّة أوّل عهدهم بالإسلام وتفرّغهم لبناء العقيدة، بالإضافة إلى انشغالهم بالسياسة، وربّما تقصير النقد والنّقاد أيضًا.

خسرَ الأدب فرصةً هائلة للاستمداد من رصيد الإسلام الضّخم، وظلّ في تاريخه الطّويل مجانبًا- في أكثر الأحيان- لهذا الرصيد، مبتعدًا عن تراثه، محرومًا من القدرة على إبداع لونٍ من الفنّ كان حريًّا أن يكون أروعَ الفنون العالمية وأبدعها؛ لو وجد التّوجيه الصالح، والقدرات الفنية المواتية.

لقد أراد محمد قطب توضيحَ بعض سمات الفنّ الإسلامي الإنساني الرفيع، فتناول طبيعةَ الإحساس الفنّي من خلال التصور الإسلامي، كما أفاض في بيان طبيعة هذا التصوّر وعلاقته بالإنسان والعواطف البشرية والجمال والقدر والعقيدة.

لقد بيّن محمد قطب مجالاتِ الفنّ الإسلامي وحقيقته، والقرآن الكريم وتصويره لمشاهد الطبيعة، ومشاهد القيامة، كما تناول القصص القرآني ومكوّناته ودلالاته، وختمَ بنماذج شعريّة لمحمد إقبال وعمر الأميري وسكينة بنت الحسين وابن الرومي، ومسرحية بعنوان "الرّاكبون في البحر" للكاتب الأيرلندي ج.م. سينج، وقصّة بعنوان "ضرس" لشقيقته حميدة قطب.

كانت تجربة عرض كتاب محمد قطب في محاضرةٍ عامّة إيذانًا بالاقتراب من الرّجل، بل من آل قطب اقترابًا أدبيًّا وفكريًّا يتعرّف على كتاباتهم وإبداعاتهم التي شوّشت عليها السّلطة العسكرية الفاشية الظالمة، لدرجة أنّها في العام التالي نزعت مجموعةً من الصفحات من كتاب قراءة كان مقرّرًا على طلاب الفرقة الرابعة بدار المعلّمين، وكان المقال يدور حول النّقد الأدبي ولا علاقة له بالسياسة من قريب أو بعيد، ولكنّ المنهج الديكتاتوري فاجرٌ في خصومته العمياء، فلا يفرق بين الفكر والسّياسة!

لقد صادرتِ السّلطة الظالمة كلّ ما كتبه آل قطب (سيد ومحمد وأمينة وحميدة)، مع حملةِ تشهيرٍ بَشِعة غير مسْبوقة محمّلة باتّهامات كاذبة وتأويلات فاسدة لما كتبه الأخوانً سيد ومحمد، ولأنّ السّلطة الغشوم كانت وحدها تملك وسائطَ التّعبير، فلم يكنْ ممكنًا التّعرف على فكر الرّجلين أو قراءته، وراجتْ على أثر ذلك تجارة كتبهما المهرّبة من لبنان، وكنت أستمعُ يوميًّا

بعد العصر لقراءة من كتاب الظلال لسيد قطب تبثّها إذاعة القرآن الكريم في مكّة المكرمة، وعقب أنْ تولّى السادات الحكم، وسمح بخروج الإخوان إلى الحياة بعد سجنٍ طويل وتعذيب وحشي، وعودة المنفيين من الخارج؛ وقفتُ في طابورٍ طويلٍ بمعرض الكتاب الذي كان يقام بجوار الأزهر في رمضان من كلّ عام لأحجز نسخةً مجلّدة من كتاب "في ظلال القرآن" لسيد قطب، وكنت سعيدًا باقتنائها، مع كتبه الأخرى وكتب شقيقه.

-٢-

في ٤/ ٤/ ٢٠١٤ نقلتِ الأنباء وفاةَ محمد قطب بالمركز الطبّي الدولي بمدينة جدة السّعودية، عن عمر يناهزُ الخامسة والتّسعين، حيث تمّت الصّلاة عليه في الحرم بمكة المكرمة، ودفن بمقابر المعلا.

لاحظتُ اهتمامًا متواضعًا بوفاة الرّجل مع أنّ فكره الثقافي وعطاءه الأدبي وتاريخه الجهادي يضعه في خانةِ الأعلام الذين يستحقّون الاحتشاد والتعريف والدّراسة.

ولدَ محمد قطب إبراهيم حسين شاذلي في ٢٦ من إبريل عام ١٩١٩، وهو عام الثورة المصريّة ضدّ الاحتلال البريطاني في بلدة موشا بمحافظة أسيوط، لأبٍ يعمل بالزّراعة، ويملك حدًّا معقولًا من الثقافة تميّزه عن أمثاله من المزارعين، وقد كان محبًّا للقراءة والاطّلاع والاهتمام بالشئون العامة، فحظي بمكانة عالية وتقدير كبير بين أهل قريته.

أمّا والدته فهي السّيدة فاطمة عثمان، وتنتمي إلى أسرة محبّة للعلم، وتلقّى إخوتها دراستَهم في الأزهر، ومنهم أحمد حسين الموشي وكان شاعرًا أديبًا، وقد اشتغل بالصّحافة والسياسة، وكانت صلتُه بالعقّاد طريق الأخوين سيد ومحمد لمعرفته والتّأثر به، وإن كان سيد أكثرَ تأثّرًا واقترابًا من العقاد.

انتقل محمد إلى القاهرة ليدرس المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثمّ يلتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة ليتخصّص في اللغة الإنجليزية وآدابها، ويتخرّج عام ١٩٤٠م، ثمّ يحصل على دبلوم التّربية وعلم النفس من معهد التربية العالي للمعلمين ليكون مدرّسًا.

كان أخوه سيد أكثرَ النّاس تأثيرًا- فكريًّا وأدبيًّا- فيه بحكم رعايته له، وكونه الأكبر إذ الفارقُ بينهما في العمر حوالي ثلاثَ عشرة سنة فكان بمثابة الأب والصديق، ومن خلال المشاركة في التفكير والمناقشة في القضايا الفكرية والأدبية والسياسية؛ نمتْ بينهما علاقةٌ روحية امتزج فيها الفكر والرّوح والقلب.

ويشير محمد قطب في بعض أحاديثه أنّ صلة سيد به من حيث التربية يتمثّل فيها العطف والحسم في آنٍ واحد، فلا هو اللّين المفسد ولا الشّديد المنفر، كما أنه كان يشجّعه على القراءة في مختلف المجالات، وكان هو نفسه نهِمًا إلى القراءة، فساعده هذا التّوجه على حبّ المطالعة منذ عهد الطفولة.

عقبَ خروجه من السجن في عهد السّادات كانت السعودية مجاله التربوي التعليمي داخل المدارس والجامعات، فكانت كتبه ضمنَ المقرّرات المدرسية، وكانت محاضراته العلمية للطلاب الجامعيّين نقلة كبيرة في تقديم الفكر الإسلامي الناضج الذي يربط بين المفاهيم الإسلامية والواقع الاجتماعي، وقد قضى سنوات طويلة بجوار الحرم المكّي حتّى لقي ربّه، ودفن هناك.

وبسبب الظّروف المأساوية التي مرّت بها أسرته؛ فقد تزوّج في سنّ متأخّرة من أسرة دمشقيّة عريقة، وأنجب ثلاثة أولاد: ابنين وبنتًا.

ولكن أهمّ ما أنجبه إلى جوار الأبناء هو مؤلفاته المتميزة التي ناقشت مفاهيم الإسلام في التّربية والحضارة والتطوّر والثقافة والتفسير والإعجاز وقضايا المسلمين والسّياسة والدعوة والسيرة والتراث الإسلامي وغيرها، وقد بلغت هذه الكتب ستة وثلاثين كتابًا طُبعت مرّات عديدة تجاوز طبعُ بعضها عشرَ طبعات، وهي:

دراسات في النفس الإنسانية- التطور والثبات في حياة البشرية- منهج التربية الإسلامية (بجزئيه: النظرية والتطبيق)- منهج الفن الإسلامي- جاهلية القرن العشرين- الإنسان بين المادية والإسلام- دراسات قرآنية- هل نحن مسلمون؟- شبهات حول الإسلام- في النفس والمجتمع- حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية- قبسات من الرسول- معركة التقاليد-

مذاهب فكرية معاصرة- مغالطات- مفاهيم ينبغي أن تصحّح- كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟- لا إله إلّا الله عقيدة وشريعة ومنهج حياة- دروس من محنة البوسنة والهرسك- العلمانيون والإسلام- هلمّ نخرج من ظلمات التيه- واقعنا المعاصر- قضية التنوير في العالم الإسلامي- كيف ندعو الناس؟- المسلمون والعولمة- ركائز الإيمان- لا يأتون بمثله!- من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر- حول التفسير الإسلامي للتاريخ- الجهاد الأفغاني ودلالاته- دروس تربوية من القرآن الكريم- حول تطبيق الشريعة- المستشرقون والإسلام- هذا هو الإسلام- رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر- مكانة التربية في العمل الإسلامي.

-٣-

ولعلّ عناوين الكتب السّابقة تكشف لنا أنّ الهمّ الأساسي الذي كان يشغل محمد قطب هو واقعُ الأمّة الإسلامية، وما تعانيه من متاعب وصعوبات، وما تحلم به من مستقبل وحضورٍ إنساني، ويمكن القول إنّ قضية الإسلام هي المحور الأوّل في كتاباته واهتماماته.

لقد كانت بداياتُه أدبيّة صرفة، غذتها اطّلاعاته على الأدب الإنجليزي مجال دراسته وتخصّصه، وكان يكتب الشّعر متأثّرًا بالشّعراء الكبار، وله مقطوعات جميلة حافلة بالتأمّل الذكي والتّصوير الحي، منها هذه المقطوعة التي جعل عنوانها ضلال، يقول فيها:

ثـــمّ مـــرّت بي دورات الليـــالي   وانطوى السّحـر الذي غشى خيالي
فـــإذا بالحقّ في الكـــون بـــدا لي   وإذا النـــاس جميعًا في ضـــلال
ما الذي يرجـــون في دنيا الزّوال   أنـــا والـــوهم الذي يشغـــل بالي
في غدٍ نذهب في طيّات هاتيك الرمال   ثمّ يمضي الكون في التّيه المعمى لا يبالي

بيد أنّ محنة آل قطب، ومعاناتِه الهول في معتقلات عبد الناصر منذ الدقائق الأولى لدخوله السّجن بدّلت حياته كلّ التبديل، ونقلته من عالم الشعر والأدب إلى عالم آخر. لقد أحسّ إذ ذاك أنّه موجود، وأنّ له وجودًا حقيقيًّا، وأنّ الذي في نفسه حقيقة لا وهم. وهذه الحقيقة هي السّيرُ في طريق الله، والعمل من أجل دعوته، وأنّ السائر في هذا الطّريق ليس ضائعًا؛ بل هو المهتدي، وأنّه حين يذهب في طيات هاتيك الرمال باللّحظة المقدورة له لا يذهب بددًا؛ وإنّما يذهب إلى الله، وهناك يجد وجوده كلّه. لقد كانتْ هاتيك اللّحظات مفترق طريق، وانتهت الحيرةُ الضّالة، ووجد نفسه على الجادة؛ وفقَ تعبيره.

لقد كانت مرحلةُ الانتقال هي بدايةَ التّركيز على الواقع الإسلامي وما يجري فيه وما يطلبُ منه لتجاوز العقبات والصعوبات، ولذا خصّص عددًا لا بأس به من كتبه لتناقش هذه المسألة، وتفسّر ما أصاب المسلمين، وكيف يمكنهم تجاوز المحنة التي يعيشونها، ولعلّ حصاد تجربته تمثّل في

ضرورة بناء الإنسان المسلم قبل كلّ شيء، والتّحذير من الصدام مع القوى الشّريرة، وخاصّة السلطات المستبدة الظالمة قبل امتلاك القوّة الإيمانية والمادية التي لا تجعل الصّدام عبثًا يفضي إلى هزائم مدمّرة!

إنّه يؤكّد على أنّ العالم الإسلامي يعيش أسوأ مراحله التاريخية، ويتعرّض المسلمون في أرجاء الأرض إلى هوانٍ غير مسبوق، فضلًا عن المذابح والمآسي والنكبات والتّفتيت والضّياع، ويبيّن أنّ هذا الوضع لم يحدثِ اعتباطًا، ولكنّه يمضي حسب سنة الله التي لا تتخلّف ولا تحابي أحدًا من الخلق ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾(فاطر: ٤٣)، ومن سنّة الله أنّه لا يغيّر نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، أي ينحرفوا عن الطّريق.. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (الأنفال:٥٣) [راجع: مفاهيم ينبغي أن تصحّح، ط٨، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٥هـ =١٩٩٤م، ص ٧- ٨ وما بعدهما].

لقد حدثتِ انحرافاتٌ كثيرة في حياة المسلمين على امتداد مسيرتهم الطويلة، وكلّ انحرافٍ وقع في حياتهم لبعدهم عن المنْهج الرّباني كانت له- ولا شكّ- عاقبته البطيئة أو السّريعة حسب نوع الانحراف، ودرجة تفشّيه، وموقف الأمّة منه بحكّامها وعلمائها وعامّتها.. حتّى إذا وصل

الانحراف إلى حدّه الأقصى كانت عاقبتُه ما نراه اليوم من ضعفٍ ومذلّة وخوف، بدلًا من الاستخلاف والتّمكين والتأمين.

لا يتحدّث محمد قطب عن الانحرافِ السّلوكي الذي قد يكون أصحابه يملكون تصوّرًا صحيحًا لحقيقة الدين، ولكنّه يتناول الانحراف الخطر، وهو الانحراف في المفاهيم. وبسبب هذا الانحراف يعاني الإسلام اليوم الغربةَ التي تحدّث عنها رسول الله ﷺ: "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ" (أخرجه مسلم)؛ ولذا فبذلُ الجهد في تصحيح السّلوك وحده دونَ تصحيح المفاهيم؛ لن يؤتي ثماره كاملة، ولنْ يخرج الأمّةَ من وهدَتِها التي انتكست إليها في العصر الحاضر، لا بدّ من جهد مضاعفٍ لإزالةَ الغربة الثّانية كالجهد الذي بذلته الجماعةُ الأولى من المسلمين لإزالة الغربة الأولى للإسلام، وهو ما ينبغي أن تقومَ به الصّحوة الإسلامية اليوم (السابق- ص ١٣).

وأوّل جهدٍ يُبذل لتصحيح الانحراف في المفاهيم هو تصحيح منهجِ التلقّي ليأتي من الكتاب والسنّة وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم، وإبعاد الأنظار الدخيلة والمنحرفة على هذا الفهم.

ثمّ تبقى مهمّة لا تقلّ خطرًا؛ وهي مهمّة التربية على المفاهيم الصحيحة لهذا الدين، حيث إنّ التربية هي الجهدُ الحقيقي الذي ترجى معه الثّمرة، ولكنّه لن يؤتي ثمرته حتّى يقوم على أساسه الصّحيح. (السابق : ١٣- ١٤).

ويركّز محمد قطب على خمسةِ مفاهيم رئيسيّة من مفاهيم الإسلام يجلي جوهرها وينفي عنها ما لحقها من تشويهٍ وانحراف، وهي: لا إله إلّا الله، والعبادة، والقضاء والقدر، والدنيا والآخرة، والحضارة وعمارة الأرض، مع التركيز على المفهوم الأوّل، والتوسّع في بيان مفهومه بوصفه الرّكن الأوّل والأكبر من أركان الإسلام، لأنّ الانحراف الأخطر والأكبر في حياة المسلمين هو الذي وقع في مفهوم لا إله إلّا الله، وكذلك مفهوم العبادة.

وإذا تمّ تصحيح المفاهيم وإعادةُ صورتها الصّحيحة والفاعلة في نفوس المسلمين فسيصبح الطريق ميسّرًا- بعون الله- لتصحيح كلّ ما أصاب المسلمين من انحراف، وما ترتّب عليه في حياتهم من آثار.

ويعتقد قطب أنّ الصّحوة الإسلامية هي قدر الله الغالب، الذي قدّره الله ليخرج به هذه الأمّة من حالة الضياع التي تكتنفها، وتجعلها غثاءً كغثاء السيل؛ إلى الاستقامة على الطّريق، ومدّ الجذور مرّة أخرى، والقيام بدورٍ جديد في حياتها، تنقذ به نفسها مما وقعتْ فيه من الهوان والذّل، والشّتات والتّيه، وتطلق في الوقت ذاته بصيصًا من النّور للبشرية الحائرة لعلّها تهتدي إلى الطريق (نفسه، ص ٣٦٥).

الطريقُ إلى الصّحوة مملوء بالعقبات والوحوش الضّارية تتلقّف السائرين فيه لتفتك بهم أوّلًا بأوّل، ولكنّ المبشرات أكبر من المعوقات. الصّحوة في حاجة إلى التعرف على عثرات الطّريق لكيلا تتعثّر، وطبيعة

الوحوش الضّارية لتعرفَ طبيعة المعركة معهم، وعدّةَ النصر في المعركة بينها وبين أعداء الله ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠)، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ (البقرة : ٢١٧).

يقدّم محمد قطب صورة القدوةِ والنموذج من خلال الرّسول ﷺ وأقواله وأفعاله، ويرى أنّها الآن في قلوب المسلمين تعاني عزلةً وجدانية عميقة. إنّه في أعماقهم روح نورانية شفيفة، إنّه سنا مشرق، ومضات من النور الرائق والشعاع المتألّق، وروح سارية في حنايا القلب، وفي أحناء الكون، ومع ذلك فهو ليس حقيقة واقعة! ليس صورة حيّة متحرّكة في واقع الحياة.

ولذلك أسباب تاريخية.

كان المجتمع إسلاميًّا مع فساد الحكام!

ظلّ المجتمع في الريف والمدن البعيدة عن العواصم إسلاميًّا قرابة ألف سنة، لا يتأثر بفساد الحكم، وكان الرسول ﷺ لا يحكم في العاصمة ولا يرسم سياسة المال؛ ولكنّه كان يحكم الرّوابط بين قلوب المسلمين في الريف والمدن البعيدة فتقوم بينها محبّة الإسلام وتكافل الإسلام وتراحم الإسلام.

في تلك الأثناء، كانت بقيّة من صورة الرسول ﷺ لم تنعزل في بعدٍ في وجدان المسلمين، بقدر ما كانت حقيقة الإسلام موجودة في المجتمع.

أمّا العزلة الكاملة الموحشة المرهوبة، فقد نمتْ وأحكمت حلقاتها حين بعد الحكم والمجتمعُ كلاهما عن الإسلام، اسمِه وروحِه، وصار الغرب الذي يحكم السياسة والمجتمع باسمه الصّريح حينًا، وعلى يد صنائعه النافرين من الإسلام حينًا آخر، وصار المجتمع الإسلامي صورةً منحلّة فاسدة من الأفكار الغريبة عن الحياة.

عندئذ لم يعدِ الرّسول ﷺ موجودًا أصلًا في واقع الحياة، لم يعد كيانًا حيًّا شاخصًا بلحمه ودمِه، وأفكاره ومشاعره، وتنظيماته وتوجيهاته، وماديّاته وروحانياتِه.

يا حسرةً على العباد!

أرى العزلة التي تعانيها صورته في وجدان المسلمين، فأعجب للناس كيف يحبونه كلّ الحبّ، ثمّ لا يتدبّرون حياته للقدوة والأسوة، كما قال لهم وبهم في الكتاب المبين؟! ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ (الأحزاب : ٢١).

أقول للناس: انظروا كيف كانت كلّ كلمةٍ يقولها منهج تربية ومنهج سلوك ومنهج تفكير ومنهج حياة.. وذلك من خلال مختاراتٍ مختلفة من الأحاديث،

كلّ منها يصلح أنْ يكون أحدَ مفاهيم الإسلام الواعية الضّاربة في مناكب الأرض، الملتبسة بصميم الحياة: زرع الفسيلة وإنْ قامت الساعة، طلب العلم فريضة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التفكّر في خلق الله وعدم التفكّر في ذات الله، عبادة الله كأنّنا نراه، الرّحمة، البسمة.. (انظر: مقدّمة قبسات من الرسول، ط ٩ ،الرياض، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م).

- ٤ -

لقد شكّل محمد قطب مدرسةً فكريّة حمل لواءها طلابُه في الدراسات العليا بمكة المكرمة، وكان المحورُ الأساس في دراسات هذه المدرسة استدعاءَ روح الإسلام وجوهره، وفهمَ النظريات الغربية على ضوء المنهج الإسلامي وأسسه، وإدراكَ حقيقة موقف الغرب من الإسلام، وهو موقف صليبي واضح، لا يخفيه ما يزعمه "أنّه تسامح مع الإسلام"، فهو في الحقيقة مجرّد شعارات فارغة تشير إلى أن أوضاع الأقليات الإسلامية في الغرب- وأمريكا خاصّةـ ستكون في منتهى الصعوبة والخطورة، وعلى المسلمين الاستعدادُ للأخطر والأسوأ.

ثمّ إنّه وجد لزامًا عليه أن يدافع عن شقيقه المظلوم إزاء اتّهامات بعض المتنطعين وأعداء الإسلام، ويردّ عليها بالدليل الساطع والبرهان الحي، مثل ادّعاء بعضهم أنّه قال بوحدة الوجود في تفسيره "في ظلال القرآن" بعد أن فصلوا منه عبارات عن سياقها، مع أنّه يشير في كثيرٍ من صفحات

هذا التّفسير إلى أنّ الله متفرّدٌ بكلّ صفاته وأنّ مخلوقاته عاريةٌ عن هذه الصّفات، وأنّه سبحانه وحده متفرّدٌ بالألوهية والربوبيّة.

وأخيرًا، فإنّه دافعَ عن الإسلام دفاعًا مجيدًا، وشرح قضايا المسلمين المظلومين في أرجاء العالم، وفنّد النظريات الغربية المادية ودحضها، ودعا إلى بناء علوم إنسانية مرجعيّتها الإسلام، وذهب إلى ربّه راضيًا مرضيًّا بجوار بيته العتيق. رحمه الله.



نجيبُ الكيلاني
والرّوايةُ المعاصرة

-١-

قالت السيدة سميرة أحمد في إجابتِها على سؤال تلفزيونيّ عن بداية العلاقة الفنية مع الأستاذ محمود ياسين: إنّها بدأت العمل معه في فيلم "ليل وقضبان"، الذي تمّ إنتاجه عام ١٩٧٣م، ويعدّ آخرَ أفلام الأبيض والأسود وأروَعها، وقد حقّق نجاحًا كبيرًا على أكثر من مستوى، وفاز بجائزة مهرجان طشقند على عهد الاتّحاد السوفياتي، ومازالت الأجيالُ الجديدة تشاهده وتتفاعل معه، ولكنّها حين تشاهد الفيلم لا تذكر إلّا أبطاله محمود مرسي وتوفيق الدقن وإلهامي فايد وعلي الشريف ومحمد السبع بالإضافة إلى سميرة أحمد ومحمود ياسين وغيرهم، أمّا المؤلف الذي كتب الرواية أو قام الفيلم النّاجح على أحداث روايته فلا يعرف أحدٌ عنه شيئًا، مع أنّه من أبرز كتاب الرّواية المعاصرة، وأغزرهم إنتاجًا، وأرقاهم صنعة، وشهدَ له نجيب محفوظ بالتفوّق، والقدرة على كتابة الرّواية المعاصرة من منظور إسلامي.

مؤلّف الرّواية هو الأديب الكبير "نجيب الكيلاني"– رحمه الله– الذي ولد في شرشابة مركز زفتى بالغربية عام ١٩٣١، وتوفّي بمدينة طنطا عام ١٩٩٥م، تاركًا

وراءه زهاءَ مائة كتابٍ بين رواية ومجموعة قصصيّة قصيرة وسيرة ذاتية ودراسات أدبية ونقديّة واجتماعية وإسلامية وصحية، فضلًا عن بعض المسرحيات.. وقد بلغ محصولُ إنتاجه الرّوائي أكثر من أربعين رواية، وقد فاز عن أوّل رواية كتبها: "الطريق الطويل" بجائزة وزارة التربية والعليم عام ١٩٥٨م، وخرج من المعتقل ليقابل الرئيس جمال عبد الناصر ويتسلّم منه الجائزة.

تخرّج نجيب الكيلاني في كلية الطب جامعة القاهرة عام ١٩٦٠م، والتحق طبيبًا بوزارة الصّحة العمومية، ثمّ هيئة السّكة الحديد بالقاهرة، وقد طاردته السياسة فاعتقل أكثرَ من مرّة، وقضى بعضَ سنوات شبابه بين الأسوار، وفي أواخر الستينيّات ١٩٦٨م هاجر إلى البلاد العربية للعمل، فعمل في ليبيا والكويت ثمّ الإمارات العربية، واستقرّ في دبي لأكثر من عشرين عامًا، حتّى أحيل على التقاعد، فعاد إلى مصر، واستقرّ بمدينة طنطا حتّى رحيله. ويلاحظ أنّ فترة هجرته كانت خصبة الإنتاج، قويّة الإبداع، عالية الجودة.

-٢-

ويمكن تقسيمُ أعماله الرّوائية إلى أربعِ مراحل فصلتُها في كتابي "الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني"، الذي طبع ثلاثَ مرّات، ولكلّ مرحلة من هذه المراحل أهميّتها في إنتاجه، فالمرحلةُ الأولى كانت تجمع

بين ما يمكن تسميته بالواقعية الرّومانتيكية كما نرى في رواياتِه: الربيع العاصف وعذراء القرية وليل العبيد وغيرها، والثّانية تتناول التّاريخ أو الرواية التاريخية ومن نماذجها: نور الله، قاتل حمزة، أرض الأنبياء، دم لفطير صهيون، مواكب الأحرار أو نابليون في الأزهر، عمر يظهر في القدس.

والثّالثة سمّيتها بالرّواية الاستشرافية، وهي الرّواية التي عبر فيها عن هموم المسلمين خارج العالم العربي، وبشّر بانتصارهم وتحررهم واستقلالهم، ويعد نجيب الكيلاني أوّلَ مَن كتب الرواية من العرب عن هؤلاء الأشقاء، فهناك كتاب من هذه البلاد كتبوا عن معاناتهم، ولم يصلْ إلينا من كتاباتهم إلّا النذر اليسير مثل كتابات جنكيز ضاغجي الذي ينتمي إلى أهل القرم أو التتار القرميّين. ومن الروايات التي كتبها نجيب الكيلاني في هذه المرحلة، روايات: ليالي تركستان، الظلّ السود، وعذراء جاكرتا، عمالقة الشمال.

والمرحلةُ الرابعة وهي التي كتب فيها رواياتِه التي سمّيتها الواقعية الإسلامية، وكتب معظمَها بعد عودته إلى مصر واستقراره فيها، وقد اشتبك فيها مع الواقع اليومي للنّاس بتفصيلاته البسيطة، وعالجها من منظور إسلامي ناضج، استطاع من خلاله أن يقدّم نماذج راقيةَ للأدب الإسلامي

في القصة والرّواية، بعيدًا عن الضجيج والهتاف الزّاعق. ومن الرّوايات التي كتبها في هذا الإطار: اعترافات عبد المتجلي، وامرأة عبدالمتجلي، وأفاد فيهما من حادثة سرقة الونش الضّخم الخاصّ بإنشاء مترو الأنفاق في ميدان التحرير، ولم يظهر له أثرٌ حتى اليوم. ومنها أيضًا رواية ملكة العنب التي كتبها حين رأى الفلاحين يتركون زراعةَ المحاصيل الرئيسية مثل القمح والذرة، ويبحثون عن الزّراعات الأكثر ربحًا أو عائدًا.

-٣-

والواقعية الإسلامية تختلف بالضّرورة عن الواقعية الأوروبيّة (الانتقادية والطبيعية)، والواقعية الاشتراكية (الماركسية)؛ من حيث التصوّر والأداء، فهي لا تصف الواقع أو التّجربة كما هي، ولو كانت تدعو إلى التشاؤم العميق الذي يفضي إلى فقدان الأمل، وأيضًا فهي لا تفتعل الأمل الذي تدعو إليه الواقعية الماركسية، التي تبشر بحتميّة الانتصار- ولو كان دمويًّا- على الطّبقة المستغلة حتى لو كان هناك تزييف في الموقف الرّوائي.

إنّ الواقعية الإسلامية تنتقد الواقع، ولكنْ من خلال الإنصاف فلا مبالغة ولا تهويل، وأيضَا لا تتحامل بسبب المغايرة أو الاختلاف، فضلًا عن رفض الصراع الطبقي الدّموي، مع الاعتماد على الأمل الإيماني في

نصرة الله بعد الأخذ بالأسباب. إنّها ترفض التّشاؤم كما ترفض التفاؤل الذي يقوم على الخداع والتزييف مع أنها تستقي مادتَها من الحياة الاجتماعية ومشكلات العصر على إطلاقها، وتختار شخصياتها من عامّة الناس ومن جميع الطبقات، وتعتقد أنّ الخير والشّر ليسا قاصرين على طبقة بعيْنها، فهما موجودان في النفس البشرية أيًّا كان انتماؤها الطبقي أو الاجتماعي، والإرادة الفردية هي العنصر الحاسم في الصراع بين الخير والشّر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٧- ١٠).

ولا أريد أن أستطردَ في بيان تفاصيل الواقعية الإسلامية واختلافها عن الواقعية الأوروبيّة أو الاشتراكية، ولكنْ أودّ الإشارة إلى أنّ نجيب الكيلاني استطاع في مرحلته الأخيرة أن يرصدَ- بعين الفنان الموهوب- تفاصيل الواقع الاجتماعي الذي يعيشه المصريون، وأنْ يطرح الحلول الملائمة وفقًا للتصوّر الإسلامي.

بقيتِ الإشارة في هذه العجالة إلى أسلوبِ نجيب الكيلاني القصصي والروائي، وهذا يقتضي منّا الإشارة إلى أنّ الكيلاني شاعر أساسًا، أخرج ما يقرُب من عشر مجموعاتٍ شعرية، نظمها وفقًا لشعر الشّطرين أو شعر التفعيلة، منها أغاني الغرباء، مدينة الكبائر، عصر الشهداء، مهاجر..

وقد انعكستْ شاعريّته على أسلوبه الرّوائي والقصصي، فحقّق السّهولة والبساطة، السّهولة الممتنعة، والبساطة المتميزة، ممّا مكّنه أن يصلَ بأسلوبه إلى قلب القارئ ووجدانه فضلًا عن عقله، وحفر له مكانًا بارزًا في وجدان القراء وأفئدتهم، في ظلّ التّجاهل النقدي والإعلامي؛ يدلّ على ذلك عددُ الطّبعات المتكررة لكتبه في داخل مصر وخارجها. رحمه الله.

(لمزيد من الاطّلاع يمكن الرجوع إلى كتابي: الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني).



ياسين الفيل

الشّاعرُ النّبيل

-١-

في خبرٍ من سطريْن نشرت صحيفةٌ مسائية أوائل مايو ٢٠١٤ نبأ رحيل ياسين الفيل. قالت الصّحيفة: "توفّي الشاعر الكبير ياسين الفيل بعد رحلة معاناةٍ مع المرض، يعدّ الفيل من أهمّ شعراء جيل الستينيّات". لم تزدِ الصّحيفة على ذلك حرفًا واحدًا!

لم أقرأ الخبرَ في صحيفة أخرى أو موقع إلكتروني، فالرّجل هناك يعيش بعيدًا في قريتِه التي تقع في أعماق الريف بمحافظة البحيرة، وأجهزة الإعلام والصحافة تمارس نشاطها من العاصمة، وتفضّل أن يلاحقها مَن يعنيهم الأمر، وخاصّة ممّن يتصدّرون المشهدَ الثقافي وتجمعهم علاقة العمل المشترك لصالح جماعة دون غيرها من الناس، ولو كان غيرها هذا أكثرَ كفاءة وأفضل موهبة، وأكثر ثقافة.

أردتُ أن أعزّي أسرته فاكتشفتُ أنّ رقم هاتفه لا يستجيب، اتّصلت بمن أعرف بالقرب من قريته ليزوّدني برقم آخر، أو برقم أحدِ أقاربه.. فأملى رقمًا لابنه الكبير "وحيد"؛ وللأسف فقد استمعتُ إلى أغنية شبابيّة في

أثناء الاتصال وانتهت الأغنية ولم أتلقّ ردًّا. انتظرت أن يكلّمني وحيد في وقت لاحق، ولكنّه لم يفعل. العادة المتفشّية الآن أن مَن يحمل هاتفًا محمولًا أو جوّالًا كما يسمّى في بعض البلدان لا يردّ إلّا على مَن يسجّل رقمًا لديه، أمّا الهاتف الغريب فلا يردّ عليه مهما كانت الظروف. لملمتُ إحباطي، وتذكرتُ أنّ كثيرًا من الأبناء الشباب يتعاملون مع الأمور بمنطق "كبّر دماغك"- أي لا تهتمّ، في المقابل كان ياسين الفيل حسّاسًا، واستجابته سريعة في السّؤال عن أصدقائه والاهتمام بمعارفه، ومجاملتهم في الأفراح والمسرات والأحزان والآلام، كان مثالًا للخلق السّمح، والسّلوك الراقي. وهو على كلّ حال من جيلٍ مختلف.

كنتُ على تواصل مع الرّجل، وجاءت الأحداث التي مرت بمصر أخيرًا فشغلتني عنه. قبيل رحيله بشهور أحسستُ بمعاناته مع المتاعب الصّحية والواقع الثقافي في آنٍ واحد. كنّا نتبادل الرّسائل، وأحيانًا نتهاتف، فضلًا عن تلاقينا في مناسبات شتّى. كان يعيش في قريته "دست الأشراف" بمركز كوم حمادة بعد إحالته على التّقاعد قبل نحو ربع قرن، وزرتُه هناك وقضيتُ معه بعض الوقت.

كان إحساسُه بالمظلوميّة والتجاهل من جانب القائمين على أمر الثقافة حادًّا، وخاصّة في المحافظة التي ينتمي إليها كلّ منّا، وهي محافظة البحيرة. تعقد المؤتمرات والنّدوات المحلية المتعلّقة بأدباء المحافظة أو قضايا أخرى؛

فلا يدعى ولا يُذكر، وهو الذي كان في زمانٍ بعيد يُذكر دائمًا مع أدباء القاهرة، ويُدعى معهم إلى المؤتمرات الدّاخلية والخارجية، ولكنّ قومنا الذي نعيش بين ظهرانيهم يصرّون أن يكون النّشاط الأدبي قاصرًا على جماعتهم أو فريقهم الذي لا يتسامح مع غيره، ولا يعترفُ به.

أسرّ إليّ بكثير من معاناته، ولكنّه كان مترفّعًا ومتعفّفًا. لم يقف على باب مسئول ثقافيّ، أو يرجو من إعلاميّ شيئًا لنفسه، ولكنّه كان قانعًا راضيًا أنّ قصائده وموضوعاته ترحّب بها المجلات والصحف العربية من المحيط إلى الخليج؛ لأنّها كانت صادرةً عن صاحب قلم حقيقيّ وشاعر موهوب. وقد حصل على ستّ وثلاثين جائزة في الشّعر، والأغنية، والنشيد، منها جائزة أحسن قصيدة لمسابقة مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ١٩٩١، وجائزة نادي أبها الأدبي ١٩٩٥.

لقد شاركت معه في عديدٍ من المؤتمرات التي كانت تقيمها الجامعات وبعض الجهات الرّسمية، فكان ودودًا في معاملته، رقيقًا في مشاعره، طيبًا في سلوكه؛ ولذا حظي بمحبّة جميع مَن عرفوه. وكنت أناديه وأكتب إليه: العمّ ياسين! فيشعر أنّه قريب منّي.

وكان يعيش بين أهله في دست الأشراف بسيطًا وديعًا، فهو واحد منهم، وكان يمازحني: الأفيال كثيرون، ولكنّهم طيبون! في إشارة إلى أنّ عائلة الفيل تملأ القرية ولكنّهم لا يغترّون بعددهم كما يحدث في بعض

القرى. وهُم بالفعل كذلك سواء منهم مَن يعيش داخل القرية أو استوطن القاهرة أو عاش خارج مصر.

-٢-

ولدَ يس قطب إبراهيم الفيل عام ١٩٢٧ في دست الأشراف بالبحيرة، وحصل على شهادة صلاحية التدريس ١٩٥٦. وعمل كاتبًا بمنطقة دمنهور التعليمية، وأحيل إلى المعاش ١٩٨٧ وكيلًا للعلاقات العامّة.

وتنوّعت كتاباته بين القصّة والمسرحية والأغنية والنشيد والأوبريت والمقال، إلى جانب الشّعر مجال موهبته السّاطعة، حيث ترك مجموعة من الدواوين، منها:

الميلاد وحكايات الخريف ١٩٨٨- توقيعات حادة على الناي القديم ١٩٩٠، من فرسان الشعر العربي (بالاشتراك) ١٩٩١- أغنية بلا وطن ١٩٩٣- أحزان الكمان ١٩٩٩- همسات الصّدى- الأمل وأحلام النورس- الزحف على حدّ المستحيل- صخب الأقنعة- الإبحار على سفن اليقين- للعصافير أغنّي.

ويلاحظ أنّه لم ينشر دواوينَ شعرية إلّا بعد إحالته على التقاعد، ولعلّ ذلك يعود إلى بعْدِه عن مركز النشر في العاصمة.

والرّجلُ يفهم الشّعرَ بمنطق العرب قديماً، ولعلّه أقرب إلى مفهوم محمود سامي البارودي، حين يرى الشّعر لحظة يصنعها الشّعور،

ووحيًا خاصًّا يصدر عن الوجدان في لحظةٍ من لحظات التفاعل بين الواقع والنفس البشرية، ويوضّح ذلك في إجابة على سؤال مِن مجلة اليمامة- الرياض ٢٧- ٤ -٢٠١٠ بقوله:

"القصيدة هتافٌ روحيّ يتصاعد نحو السّماء، بكلّ ثورة الوجدان واتقاد العاطفة، وبكلّ ما يمور في أعماق الشّاعر، وبكلّ ما يختزنه الوعي في السراديب اللامرئية في النّفس الإنسانية".

قد ينطلق هذا الهتافُ استجابة لهزّة نفسية تحدثها نظرةٌ عابرة، أو تفجرها ذكريات غائرة.. أو مشهد يستدعي مشاهدَ مختزنة في قلب الشاعر.. وقد ينطلق هذا الهتاف دونَ موعد سابق، أو سببٍ واضح.. وهو في كلّ انطلاقاته لا يعترف بالقيود ولا يخضعُ للإرادة، وإنّما هو يهبط من علٍ كالوحي تمامًا.. فتعجز إرادتُنا عن قهره أو إبعاده عنّا.. قد يغزونا خاطرُ الشّعر نيامًا، فلا نستطيع سوى الاستجابة له، ومن ثمّ تتضاعف معاناتنا سهدًا وإرهاقًا.. سواء تدفّق هذا الخاطر على الورق صورًا هلاميّة، أم انسكب أنغامًا واضحة الملامح، لتكملة المعالم نردّدها مفاخرين.. وقد يتلبّسنا ونحن بين الناس، فلا نستطيع له دفعًا.. وهو في كلّ حالاته يظلّ يرسل تياره الصّاعق في قنوات التوصيل المهيّأة لحمل الشحنة الكهربية، وتوجيه القدرة الإبداعية، حتى يتجسّد على الورق كلمات، فيها من النّحت دقّته،

ومن الموسيقى قوالبها، ومن الرّسم صوره وألوانه، ومن الرقص حركاته وإيقاعه.. وهكذا تجيء القصيدةُ ممزوجة بطبع الشّاعر، مقرونة بمزاجه من خلال نظرته الخاصة التي تشمل كلّ ما يحيط به، وما يتفاعل معه من كائنات في لغة موحية، بعيدة كلّ البعد عن نثْر الحياة اليومية.

هذه هي القصيدةُ كما تجيء، وكما يكتبها الشّاعر.. وحسبي أن أكون من هذه الكتيبة، التي أنا محسوبٌ عليها منسوب إليها".

ومِن هذا المنطلق نجد شعر ياسين الفيل استجابةً داخلية لمشاعره وعواطفه، وهي مشاعرُ وعواطف مشبعة بروح الثقافة الإسلامية ومعطياتها في نظرتها وتصوراتها للذّات والمجتمع والسّياق العام للأمّة والتعامل مع العالم الخارجي.

ولا شكّ أنّ الشّاعر ياسين الفيل يملك الأدواتِ والموهبة التي تمكّنه من الاستجابة للتّعبير الحي المجنّح القوي، فهو يستوعب اللغة ويقدر على تطويعها وصياغتها من خلال التّصوير والتشخيص القريب السهل الذي ينقل ما يريده بدقة ووضوح وتأثير عميق.

دعنا نقرأ مقطعًا من قصيدته "الله أكبر" على سبيل المثال لنرى فيها موهبة الشاعر تتجلّى في التعبير عن إيمانه القوي بربّه، وقدرته على تحقيق رجائه وإنصافه وإنقاذه ومساعدته عندما يطلب العون والنصرة:

الله أكبر.. أطلقها.. لمن صالوا تيهًا وكِبْرًا.. وعن ركْب الهدى مالُوا

الله أكبر.. عند الكرب.. ما سكنت أرض، أبت أن يسود الأرض محتال

الله أكبر.. أعلنها.. يُجبْك بها شعب، على الظلم لم يهدأ له بال

وإنّما هو مدّ الخطو.. في زمن سطا على الابن فيه العمّ والخال

الله أكبر.. شاء الله.. فاعتدلت دنيا.. وطاب لها في الأفق ترحال

يا أمّة الحبّ صوت الحبّ يوقظكم في اليوم خمسًا.. وصوت الحبّ فعّال

فاستمْرِئوهُ خلاصًا يستقمْ أمل في أرضكم لم يزلْ ترويه أجيال

إنّ التمسّك بالإيمان يحفظكم على الطريق.. وإن تمتدّ أهوال

كم باطل جار، واختلت قوادمُه زالت خطاه وأهلُ الأرض ما زالوا

فاستنفروا لنداءات الهدى غدَكم إنّ الغد الحقّ.. بالإيمان.. يختال

القصيدة طويلة وتتعدّد مقاطعها، ويبدو فيها الشّاعر مسيطرًا على قافيته، ممسكًا بالميزان الموسيقي دون خللٍ أو جنوح إلى النّثرية. إنّه ينشد شعرًا يبدو سهلًا بسيطًا، ولكنّه عميق محكم. صحيح أنّ الجملة الشعرية تبدو قريبة ومألوفة، ولكن الإمساك بها لا يتأتي إلّا لشاعر موهوب. تأمّل مثلًا: الله أكبر أعلنها يجبك بها شعب...، فهي جملةٌ بسيطة في جزئها الأوّل الله

اكبر أعلنها، وفعل الأمر هنا معتادٌ يقوله كثيرون، ولكنّ جواب الأمر هو جوهر الجملة وتميّزها "يجبك بها شعب" من صفاته أنّه ثائر على الظّلم والطغيان والاحتلال.

وستجد- بالإضافة إلى ذلك- أنّ التّكرار قد يتوهّمه بعض القراء حشوًا لا أهمية له، ولكنّ المتأمّل في جملة الله أكبر يراها تضيفُ دلالةً جديدة في كلّ مرّة يستخدمها الشّاعر. وإذا عرفنا أنّ جملة "الله أكبر" تمثّل في الوجدان الإسلامي شعارًا وعقيدة ورمزًا وهتافًا روحيًّا وعباديًّا يتكرّر في حياة المسلم اليومية، فقد نجح الشاعر في توظيفه ضمن السّياق العقدي والفكري ليكون طريق النجاة على المستويات كافّة: الشّخصية والاجتماعية والإنسانية؛ فهو اعتدال الميزان، وتصحيح الأوضاع، والإغاثة عند الكرب، وإنقاذ المظلومين، وصوت الحبّ الفعّال، واستقامة الأمل، وحفظ الطريق، وإزالة الباطل... إلخ.

لا ريب أنّ ياسين الفيل حوّل شعار معركة العبور في رمضان ١٣٩٣هـ = أكتوبر ١٩٧٣م؛ إلى جملة شعريةٍ فاعلة في قصيدته الطويلة، وصارت جملة "الله أكبر" تعبيرًا عن ضمير الأمّة الإسلامية الجمعي، وهي تواجه عدوًّا مدجّجًا بأقوى الأسلحة وأشدّ عناصر الدّمار فتكًا وقتلًا، فاستطاعت بمضمونها الإيماني أن تعوّض القصور في السّلاح وتواجه العدوّ باستبسال فريد ونادر أسقط غرورَ الغزاة وأبهج الأحرار في كلّ مكان، وفجّر عيونَ

موسى ليفطر المقاتلون الصائمون، وأيقظ الضمائر الميتة، وأثبت أنّ مواجهة الظالمين تُنهي امتهان العدل وتُرسّخ حقوق المظلومين.

- ٣ -

لقد كان ياسين الفيل على وعي بأهمية الشّعر وطبيعته في الواقع الاجتماعي والإنساني؛ ولذا لم ينجرفً وراء الموجات العبثية أو الضبابيّة التي اجتاحت الشعر العربيّ منذ نصف قرن مضى باسم الحداثة والتجديد، وتجاوز ما هو قائم من مستويات شعرية، وكان متنبّهًا لأعراض الأزمة الشعرية التي وقع فيها الشعر العربيّ المعاصر بسبب مراهقات بعضهم وسوء نوايا بعضهم الآخر، وقد استطاع تشخيصَ الأزمة التي يمرّ بها الشعر العربي المعاصر تشخيصًا واضحًا في حديثه إلى مجلّة اليمامة المشار إليه آنفًا، فهذه الأزمة حصادُ خلل في معمار الفنّ الشعري وفي مضامينه بدعوى التّجديد، بدأت منذ أكثر من نصف قرن، بغزو مقنع، لم يتدبر الأصلاءُ عواقبه، ممّا حدا بهذا الغزو إلى التوحّش، فأطاح بكلّ الموروثات التي لا بدّ منها لإبداع شعري لا تذروه رياحُ الحداثة، التي لبست قناع التجديد بينما هي غزو لهذا الأمل الذي تلتفّ حوله الأمّة منذ قرنين من الزمان.. لقد نجح هذا الغزو في إغلاق الدائرة حولنا.

لقد نجح هذا «الغزو» بترويج الأفكار المبتذلَة عن الضياع والوحدة وانهيار الحلم الإنساني، ممّا أعطى المشروعية للخلاص.. إمّا بالخروج

من العالم هربًا... وإمّا بالشّبق الحسي تجاه الصّورة الموحدة للحبيبة النمطية.

إنّ هذا الجموح قد علّب الأخيلة، وحنّط الإبداع، حتّى لتبدو قصائد الحداثيّين ممّن انخدعوا بالحداثة، وكأنّها محصّلة جهد في التّلخيص والتنسيق لقراءات سبقت، ممّا يؤكّد الافتقار إلى التّجارب الذاتية التي يقدّم لنا الشاعر من خلالها العالم ودلالاته ومذاقه، بل ويحدّد مصير الإنسان فيه. ويضاف إلى ما تقدّم- كما يرى ياسين الفيل- تهميش دور الشّعر، واستهانتنا بما يؤصّله فينا من قيم وأخلاقيات، وعدم حرصنا على أن يحتلّ الشّاعر مكانه، أو يحقّق نجاحًا... مهْما أجاد وأفاد وعانى.

ولعلّ هذا كان من وراء تركيز ياسين الفيل في معظم شعره على القضايا القومية والإسلامية، وفي مقدّمتها قضية فلسطين والقدس، فما أكثر ما غنّى للمقاومة الفلسطينية وأبطالها المجهولين والمعلومين، وما أكثرَ ما بكى القدس، وما أكثر ما رفض الحلولَ الانهزامية، وما أكثر إشادته بالشّهداء والصابرين، ويصوغ كلّ هذا في فنّ جميل يغزو القلوب والأفئدة؛ بل يكون هتافًا مخلصًا لقضية المسلمين الأولى أعني القدس. نقرأ مثلًا قصيدته القصيرة التي كتبها على لسان الطّفل الشهيد «محمد الدرّة» بعنوان «مقتول يشكر قاتله». ونصّها يقول:

أيّها القاتلُ:

شكرًا...

من قتيل

أنت لم تقهر عنادهْ...

.. أو تدري كيف...

يا رمزَ البلادة؟

حينما استهدفتنى صيدًا

به تختالُ

في حرب الإبادة

أنت لم تقْتلْ

– وإن أسرفتَ –

بعضًا من إرادة

إنّما أنتَ

بهذا الغدرِ

قد ألبستنى

ثوبَ الشّهادة.

إنّ الجملة الإخبارية التي يختم بها القصيدة تؤكّد على الموروث العقدي والجهادي لدى أمّتنا وهي تواجه عدوها، وتصبر وتصابر حتى تحقّق النصر الموعود بمشيئة الله. ثمّ إنّ هذه الجملة تنهي حوارًا من جانبٍ واحد يجريه الشّهيد مع قاتله، يفحمه ويؤكّد له أنّه لم يقهر إرادته، وأنّه حين قتله لم ينتزع إرادته. ويبدو أنّ الشهيد كان رقيقًا حين وصف القاتل بالبلادة، فالقاتلُ الصهيوني ليس بليدًا بقدر ما هو متوحّش ودمويّ وفاشي، وهو على وعي حادّ بمهمّته الإجرامية، ولكنّه تجرّد من الإنسانية والأخلاق والإحساس البشري.

-٤-

وإذا كان ياسين الفيل يركّز على القضايا العامّة، ويبذل لها معظم قريضه، وقد يضطرّه ذلك إلى أنْ تكون نبرتُه عالية في بعض الأحيان تصل إلى حدّ الصراخ، كما نرى في بعض قصائده من أجل فلسطين مثلًا؛ فإنّه يتجاوز ذلك في عديد من الأحيان إلى البناء الرّمزي الهادئ العميق الذي يجوس في أعماق النفس الإنسانية، ويحتاج تفسيرُه إلى شيء من الصّبر والتأمل.

وله قصيدةٌ رمزيّة خالصة عدّها الدكتور جابر قميحة- رحمه الله- مِن أرقى ما قرأ من الشّعر فكرًا، وتصويرًا وتعبيرًا؛ لأنّها ذاتُ ملامح جديدة رائعة، وعنوان القصيدة «اختراق»، وأبياتها تقول:

ما أيسرَ أنْ

أمشى بجنازةِ قبَّرةٍ

لا أرثيها

أبكيها.. أو لا أبكيها

لكنّي.. حين أناجيها

وأقضّ مضاجع قاتلها

فأنا بالهمّة أحْييها

وأعيد إلى العشّ المقرور

بقايا دفء

مال به صمت الأكفان

ثرثرتي عنها،

دمدمتي،

توقظها،

منّي تدْنيها

تتحرّك بين الأغصان

وتعود لَمن ألِفَ النّجوى

طيرًا.. أبديًّا

فوق العشّ يحلق

مخترقًا

صمت الجدران

ليغنّي...

أغنية ثكْلى

تجتاز فَنَاء الإنسان.

إنّ القصيدة تحمل نبضًا إنسانيًّا يناغي وترًا حسّاسًا في مشاهد الحياة التي يحلم بها الإنسان في كلّ زمان ومكان، وهو التّعاطف والألفة والتناغم والدفء، وتجاوز الوحشة والوحشيّة. ومن خلال البناء الفنّي لقصّة هذا الطائر الذي قتله مخلوق متوحّش نجدُ الشاعر بمرثيّته له فيقضّ مضاجع القاتل، ويعيد الدفء إلى العشّ البارد، ويحيي الطّائر القتيل ويحوّله إلى طائر أسطوري لا يموت! وكأنّه يقول للقاتل لن تستطيع أنْ تنال بوحشيّتك من تغريد الطائر أو الإنسان الذي لن يفقد إنسانيته أمام الوحشيّة، حتّى لو قتلته وواريته التراب.

شعرُ ياسين الفيل في مجموعه شعرٌ إنساني، يفيض إنسانيّةً نابعة من الإيمان والقيم العليا التي رسّختها الثقافة الإسلامية، وأكّدتها حضارة عربية عريقة تغني للإنسان في كلّ مكان، وتمنحه دفء الحياة الفطرية الجميلة التي فطر الله الناس عليها.

إذا قاومتُ ضعفي وانتصرتُ

بما تيسّر لي...

أقمتُ عماد بنياني

على ثقتي وإيماني

وحسبي أن أعيش العمرَ

يا أللهُ...

منتصرًا... بإيماني.



كتبٌ للمؤلف

أوّلًا: كتبٌ صادرة عن دار النّشر الدولي بالرياض:

١- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

٢- تيسير علم المعاني، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦م.

٣- الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

٤- محمد ﷺ في الشّعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقّحة ومَزيدة ومجلّدة وفاخرة)،١٤٢٩هـ = ٢٠٠٩م.. الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنّشر، المنصورة (مصر)، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

٥- المدخل إلى البلاغة القرآنية، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧م.

٦- القصائد الإسلامية الطّوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقّحة ومَزيدة ومجلّدة وفاخرة)،١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩م.

٧- تطوّر النّثر العربي في العصر الحديث، ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨م.

٨- تطوّر الشّعر العربي في العصر الحديث، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

٩- المدخل إلى البلاغة النبوية،١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.

١٠- الأدب المقارن: المفهوم والتطبيق، ١٤٣٦ هـ = ٢٠١٥م.

ثانيًا: كتبٌ صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق- كفر الشيخ):

١- الإخوان والنظام: برنامج الحزب المستحيل، ٢٠٠٩م.

٢- وجوه عربية وإسلامية، ٢٠٠٨م.

٣- الورد والهالوك: شعراء السبعينيّات في مصر (طبعة ثالثة)، ٢٠٠٩م. الطبعة الأولى، دار الأرقم، الزقازيق (مصر)، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٤- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة)، ٢٠٠٨م. الطبعة الأولى، دار البشير، عمّان (الأردن)، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦م.

٥- الرّواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية)، ٢٠٠٩م، الطبعة الأولى، نادي جازان الأدبي (السعودية)، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨م.

٦- روائع القَصص النبوي: في رياض النبوة (٤ أجزاء). الطبعة الثانية، دار الصّحابة، طنطا (مصر)، ٢٠١٢م.

٧- شعراء وقضايا: قراءة في الشعر العربي الحديث، ٢٠٠٨م.

ثالثًا: سرديّات:

١- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان)، عدد خاص من مجلة الثّقافة الأسبوعية، القاهرة، ١٩٧٤م. ط٢، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م.

٢- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٦م.

٣- زمن البراءة: النّيل بطعم الجوافة (الجزء الأوّل من السيرة الذاتية).

٤- زمن الهزيمة: النّيل لم يعدْ يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية).

٥- زمن الغربة: النّيل لا طعمَ له، (الجزء الثالث من السيرة الذاتية).

٦- شغفها حبًّا، (رواية)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٤٠هـ= ٢٠١٩م.

٧- محضر غشّ، (رواية)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٤٠هـ= ٢٠١٩م.

٨- شكوى مجهولة، (رواية)، لم تنشر.

٩- منامات الشيخوخة، (قصص)، لم تنشر.

رابعًا: كتبٌ صادرة عن مكتبة جزيرة الورد- القاهرة:

١- التمرّد الطّائفي في مصر: أبعاده وتجلّياته، ٢٠١١م.

٢- العمامة والثقافة: دفاع الإسلام وهجوم العلمانية، ٢٠١١م.

٣- عباد الرحمن وعباد السلطان،٢٠١١م.

٤- الأقلّية السعيدة: يوميات التمرد والتسامح، ٢٠١١م.

٥- ثورة الورد والياسمين: من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل، ٢٠١١م.

٦- اخلع إسلامك.. تعشْ آمنًا؟!، ٢٠١١م.

٧- تدبير المنزل، ما بعد الثورة،٢٠١١م.

٨- الضيافة والشهادة، ٢٠١١م.

٩- عواصف الربيع العربي، القاهرة، ٢٠١١م.

خامسًا: إسلاميّات:

١- مسلمون لا نخجل (٤ طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

٢- حرّاس العقيدة (٣ طبعات).الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩م.

٣- الحرب الصّليبية العاشرة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

٤- العودة إلى الينابيع: فصول عن الفكرة والحركة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

٥- الصّلح الأسود.. والطريق إلى القدس، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

٦- ثورة المساجد.. حجارةٌ من سجيل، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

٧- هتلر الشّرق....، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

٨- جاهلية صدام وزلزال الخليج، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٧- أهل الفنّ وتجارة الغرائز (طبعتان). طبعة السّعودية، مؤسّسة آسام للنشر، الرياض، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٨- النّظام العسكري في الجزائر، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣م.

٩- حفنة سطور.. شهادة إسلاميّة على قضايا الأمّة، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

١٠- الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة، مركز الإعلام العربي، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

١١- الإسلام في مواجهة الاستئصال، دار التّوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

١٢- تحرير الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

١٣- دفاعًا عن الإسلام والحرية، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

١٤- التّنوير.. رؤية إسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

١٥- معركة الحجاب والصّراع الحضاري، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

١٦- العصا الغليظة، كتاب المختار، القاهرة، د. ت.

١٧- واسلمي يا مصر، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا (مصر)، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

١٨- ثقافة التّبعية: المنهج. الخصائص. التّطبيقات، دار الفضيلة، القاهرة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

١٩- انتصار الدّم على السيف، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.

٢٠- المدافعة والمُداولة: قراءة في السّنن والتحوّلات، مكتبة سلمى الثقافية، تطوان (المغرب)، ٢٠١٢م.

٢١- أهل الفنّ وتجارة الغرائز، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

٢٢- القيم الخلقيّة وإعجاز القرآن في رسائل النور عند النورسي، مفكرون للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٤٠هـ=٢٠١٩م.

سابعًا: كتبٌ أدبيّة ونقديّة:

١- الغروب المستحيل (سيرة كاتب)، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، د. ت.

٢- الرّواية التّاريخية في أدبنا الحديث (طبعة رابعة)، مبدعون للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٤٠هـ = ٢٠١٩م. الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

٣- حوار مع الرّواية في مصر وسورية، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٩م.

٤- الوعي والغيبوبة: دراسات في الرّواية المعاصرة، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٧هـ =٢٠٠٧م.

٥- إنسانية الأدب الإسلامي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار(مصر)، ٢٠٠٨م.

٦- حصيرة الرّيف الواسعة، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، ٢٠٠٨م.

٧- أضواء على الرّواية الإسلامية المعاصرة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، سلسلة روافد، الكويت، ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩م.

٨- الحكاية كلّها معاصرة (دراسات في الرّواية)، دار حضر موت، المكلا (اليمن)، ٢٠١١م.

٩- الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

١٠- بالاشتراك مع آخرين، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، تحرير وإشراف أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م.

١١- بالاشتراك مع آخرين، أمل دنقل عابرًا للأجيال، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٢- مطوّلة علي أحمد با كثير، مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية)، د. ت.

١٣- مدرسة البيان في النثر الحديث، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ٢٠١٨م.

١٤- لويس عوض: الأسطورة والحقيقة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤م.

١٥- نحْو رواية إسلامية، ملحق المجلّة العربية (٢٩)، الرياض، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

١٦- الزّاهد أنور الجندي: حياته. أدبه. فكره، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ١٤٣٧ هـ = ٢٠١٦م.

١٧- المآذن العالية: رجال من ذهب، دار المقاصد للتوزيع والنشر، القاهرة، ١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م.

١٨- حكايات الجواري والعبيد (الرّواية المضادة)، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ١٤٠هـ= ٢٠١٩م.

ثامنًا: إعلام:

١- الصّحافة المهاجرة: رؤية إسلامية، ط٢، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٢٣ هـ = ١٩٩٢م.

تاسعًا: كتبٌ للأطفال:

١- واحد من سبعة، هيئة قصور الثقافة، سلسلة كتاب قطر الندى- العدد ١٦٤، القاهرة، د. ت.

عاشرًا: كتبٌ محقّقة:

١- فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠١٠م.

٢- طائفة من المؤلفين، أحسن ما كتبت، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠١٠م.

٣- المتنبي، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) دار الفضيلة، القاهرة.

٤- تاريخ علوم البلاغة والتّعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي (تحت الطبع)، دار الفضيلة، القاهرة.

